الفصل الرابع

المقاصد الكبرى
لآيـات الترهيب والترغيب

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]

قالت الأنصار يوم بيعة العقبة: ما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال ﷺ: الجنة، قالوا: ربح البيع، لا نقيلها ولا نستقيلها.. (رضي الله عنهم)

مقدمة

فى هذا الفصل بدأنا بحتمية وجود دار أخرى غير هذه الدار يجازَى فيها الناس على أعمالهم ..

وأن قوانين هذه الدار ليست واجبة بل جائزة .. فقد كانت على هذا النحو الذى نحياه لأن الله تعالى أرادها هكذا .. ولّما يشاء سبحانه أن تكون هناك دار أخرى بقوانين أخرى فستكون كما شاءها الله تعالى.

ثم أوردنا شاهدًا من كلام ابن القيم رحمه الله أن فى دارنا هذه من العجائب ما هو أعظم مما يستبعده البعض من أمر الآخرة.

* * *

ثم بدأنا بالترهيب:

وقبل الحديث عن مقاصد الترهيب بدأنا بإيراد وشرح والتعليق على بعض مواطن الترهيب في كتاب الله تعالى .. لا لاستيفائها فليس هذا موضوعنا بل أمثلة كتمهيد لشرح مقاصده.

ثم ذكرنا مقاصد الترهيب فى كتاب الله تعالى وهي:

١ - علم وبيان أن الله تعالى هو الملك ونحن عبيده .. أرقاؤه .. ملكه سبحانه، ومن خرج عن مقتضى العبودية عليه أن يلقى جزاء مخالفة الملك.

٢ - أن نعلم أن خطاب الله تعالى لنا خطاب جاد.

٣- أن نعلم جدية الحياة ذاتها وأنها ليست عبثًا.

٤ - الرحمة والنعمة في هذا الخطاب؛ ففى خطاب الترهيب قصد رحمة الخلق والإنعام عليهم بتحذيرهم أسوأ المهالك على الإطلاق.

٥ - الردع؛ فكل هذه المشاهد جاءت عقب أو قبل ذكْر انحراف ما؛ فمقصدها الأساسي الردع وليس النواح.

* * *

ثم ختمنا بنقطة هامة وهى أن ما ورد من الترهيب فى حق الكفار فللمؤمن حظ منه بحسب مشابهة عمله، وأوردنا القاعدة فى ذلك من كلام الامام الشاطبى ..

وقد أطلت من النقل عنه لاشباع هذه النقطة لأهميتها ولأنها تمثل توازنا بين إهمال ما ورد من الترهيب بحجة أنه فى الكفار فقط ـ مع عدم ضمان أحد أن يموت مسلما فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ! ـ وما بين الغلو بإعمالها فى عصاة الموحدين بلا تفريق.

* * *

ثم ثنّينا بالترغيب:

وبدأنا كذلك بإيراد وشرح مقاطع مما ورد فى كتاب الله تعالى من الترغيب كأمثلة للتمهيد للحديث عن المقصد من الترغيب.

ثم ذكرنا المقصد العام من الترغيب وهو الإجابة على هذا السؤال:

ما لنا إن فعلنا ذلك ـ من التزام ما أنزل الله تعالى الينا من منهج ـ كما قالت الأنصار يوم العقبة لرسول الله ﷺ؟.

وهو سؤال كبير تحته أسئلة كثيرة بحسب الزمان وبحسب الحِمْل والواجب المطلوب ..

من كل شخص على وجه الخصوص من واجب فردي .. أو ما يجب عليه مع غيره من مجموع الأمة.

وذلك للفهم عمومًا عن الله تعالى .. وللإنطلاقة بهذه الأمة فى هذا الواقع المعاصر ..

والله تعالى الموفق وهو الهادى الى سواء السبيل . .

تمهيد

أولاً: نحن قد اعتدنا قوانين هذه الدار الدنيا، وقد بنيت هذه الدار على المزج بين الطرفين النعيم والشقاء.

وبعض المجانين من الملحدين ينكرون أن يكون هناك دار أخرى خالصة للنعيم أو خالصة للشقاء.

ومن هنا ينكرون الجنة والنار ـ وما يلزم هذا الإنكار من إنكار النبوة والرسالة.

بل وإنكار الخالق سبحانه وتعالى والكفر به شاءوا أم أبوا.

وهذا جنون؛ فإنه ما من شيء يوجب أن تكون قوانين الدنيا التي اعتدناها ـ على هذا النحو الذي نراه والذي ألفناه.

ولكن الذي أوجبها أن تكون على هذا النحو هو إرادة رب العالمين، فهو سبحانه شاء أن تكون هكذا فكانت ولو شاء أن تكون على غير هذه الطريقة لكانت، وعندما يشاء أن يكون هناك دار أخرى بقوانين أخرى فستكون على نحو ما يشاء سبحانه.

* * *

ثانيًا: قد جعل الله تعالى في هذه الدار شواهد للدار الآخرة رحمة بالخلق وتبصرة لهم.

فمن يعجب أن قومًا يبقون في النار عذابًا بلا موت .. ويقول: لا يكون هذا، فقد جعل الله سبحانه من الشواهد الحية ـ غير القاعدة التي نراها ـ على إمكان هذا في الآخرة؛ فحيوان السمندل يحيا في النار ولا يتأثر بها[1] وهو حيوان نادر كما تقول العرب في مثلها السائر: (أندر من سمندل).

يقول الإمام البيضاوي:

«﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ عطف على ﴿ ٱلرُّءْيَا ﴾ وهي شجرة الزقوم لما سمع المشركون ذكرها قالوا: إن محمدًا يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر. ولم يعلموا أن من قدر أن يحمي وبر السمندل من أن تأكله النار، وأحشاء النعامة من أذى الجمر وقطع الحديد المحماة الحمر التي تبتلعها قدر أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها ولعنها في القرآن، لعن طاعميها وصفت به على المجاز للمبالغة»[2].

ويقول الإمام النسفي: «والشجرة الملعونة في القرآن أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس فإنهم حين سمعوا بقوله: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾، جعلوها سخرية وقالوا: إن محمد يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة، ثم يقول تنبت فيها الشجرة. وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ذلك فإنه لا يمتنع أن يجعل الله الشجرة من جنس لا تأكله النار فوبر السمندل وهو دويبة ببلاد الترك يتخذ منه مناديل إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالمًا لا تعمل فيه النار وترى النعامة تبتلع الجمر فلا يضرها وخلق في كل شجرة نارًا فلا تحرقها فجاز أن يخلق في النار شجرة لا تحرقها»[3].

* * *

---

(١) هذا للاستدلال فقط على مسألة الحياة بلا موت في النار ووجود شجرة الزقزم بها، لكنها دار عذاب عظيم.

(٢) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٤٥٣.

(٣) تفسير النسفي، جـ ٢، ص ٢٩٢.

ما في هذه الدار أعجب!.

ويشير ابن القيم من تعجب البعض من أنهار من لبن لا تخرج من بطون الأنعام أو عسل لا يخرج من بطون النحل فيقول: أن ما في دارنا هذه أعجب؛ أن يخرج الله من بين فرث ودم لبنًا ليس فيه للدم أثر لون ولا للروث أثر رائحة، والذي أخرج العسل من بطون النحل قادر أن يخرجه من غير هذا، علمًا بأن إخراجه من بطون النحل أعجب.

يقول رحمه الله: «وقد أخبر سبحانه أن في الجنة ظلالاً والظلال لابد أن تفيء مما يقابلها فقال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾، وقال: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾، فالأطعمة والحلوى والتجمر تستدعي أسباب تتم بها والله سبحانه خالق السبب والمسبب وهو رب كل شيء ومليكه لا إله إلا هو، وكذلك جعل لهم سبحانه أسبابًا تصرف الطعام من الجشاء والعرق الذي يفيض من جلودهم فهذا سبب إخراجه وذاك سبب إنضاجه، وكذلك جعل في أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام ويلطفه ويهيئه لخروجه رشحًا وجشاء، وكذلك ما هناك من الفواكه والثمار يخلق لها من الحرارة ما ينضجها، ويجعل سبحانه أوراق الشجر ظلالها؛ فرب الدنيا والآخرة واحد وهو الخالق للأسباب والحكم ما يخلقه في الدنيا والآخرة والأسباب مظهر أفعاله وحكمته ولكنها تختلف ولهذا يقع التعجب من العبد لورود أفعاله سبحانه على أسباب غير الأسباب المعهودة المألوفة وربما حمله ذلك على الإنكار والكفر وذلك محض الجهل والظلم وإلا فليست قدرته سبحانه وتعالى مقصرة عن أسباب أخر ومسببات ينشئها منها كما لا تقصر قدرته في هذا العالم المشهود عن أسبابه ومسبباته وليس هذا بأهون عليه من ذلك.

ولعل النشأة الأولى التي أنشأها الرب سبحانه وتعالى فيها بالعيان والمشاهدة أعجب من النشأة الثانية التي وعدنا بها إذا تأملها اللبيب، ولعل إخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة والماء والخشب والهواء المناسب لها أعجب عند العقل من إخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها، ولعل إخراج هذه الأشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم ومن قيء ذباب أعجب من إجرائها أنهارًا في الجنة بأسباب أخر، ولعل إخراج جوهري الذهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال وغيرها أعجب من إنشائها هناك من أسباب أخر، ولعل إخراج الحرير من لعاب دودة القز وبنائها على أنفسها القباب البيض والحمر والصفر أحكم بناء أعجب من إخراجه من أكمام تنشق عنه شجر هناك قد أودع فيها وأنشئ منها، ولعل جريان بحار الماء بين السماء والأرض على ظهور السحاب أعجب من جريانها في الجنة في غير أخدود ..

وبالجملة فتأمل آيات الله التي دعا عباده إلى التفكر فيها وجعلها آيات دالة على كمال قدرته وعلمه ومشيئته وحكمته وملكه وعلى توحده بالربوبية والإلهية ثم وازن بينها وبين ما أخبر به من أمر الآخرة والجنة والنار تجد هذه أدل شيء على تلك شاهدة لها وتجدهما من مشكاة واحدة ورب واحد وخالق واحد ومالك واحد؛ فبعدًا لقوم لا يؤمنون»[1].

والقاعدة كما أشرنا إليها أنها إنما هي قوانين تعودنا عليها لم تكن هكذا إلا لأن الله تعالى شاء أن تكون هكذا .. ولو شاء غير هذا لكان .. وعندما يشاء أن يكون غير هذا فسيكون ..

وتَعودُنا وإلفُنا لشيء لا يوجب أن لا يكون غيره.

الترهيب والترغيب صنوان مقترنان في كتاب الله تعالى، قد يقدم أحدهما ، لكن في الغالب الأعم يتبعه الآخر وهذا أحد أوجه كونه مثاني.

---

(١) حادي الأرواح، جـ ١، ص ١٣١، ١٣٢.

ولننظر في آيات الترهيب

أولاً: نستعرض بعض المشاهد في كتاب الله تعالى ونعلم مدى عظمة ما أعد لمعانديه ومخالفيه مع التعريف أولاً بالنار.

ثانيًا: ننظر في مقاصد ذكر الترهيب والحقائق المتعلقة به وهو مقصود البحث.

* * *

أعد الله تعالى لأعدائه ولمخالفي أمره عذابًا شديدًا، ويسبق هذا العذاب مواقف ومُقَدمات ثم دار مستقر.

مقدماته في الدنيا بالإهانة والذل والخزي والكبت.

ثم عند الموت وسكراته.

ثم في القبور.

ثم يوم الحشر العظيم.

ثم في دارهم التي هي دارهم، لا دار لهم سواها ـ الكفار ـ وهم أصحابها وهي لهم ملازمة إياهم وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، هي مأواهم .. وملجأهم .. ومستقرهم ..

والدلالات والمقاصد من آيات الترهيب واحدة في جميع مراحلها.

ولنستعرض أولاً بعض المشاهد في أعلاها وهي النار لتكون دلالة على ما دونها مع وحدة الحقائق والمقاصد.

* * *

أولاً: الترهيب بالنار وذكر بعض أوصافها ثم ذِكر مقاصد الترهيب

معنى النار:

النار هى دار عدل الله .. أعدها الله تعالى لعذاب أعدائه وعصاة أمره .. وفيها جميع ألوان العذاب من آفات الدنيا والآخرة ؛فآفات الدنيا موجودة فى النار بأبشع وأعظم خَلْقا كما وردت بذلك بعض الآثار ، غير ما أعده الله تعالى لعصاته مما لا يخطر على بالهم ؛ فكما أعد الله تعالى لأوليائه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. فكذلك أعد تعالى لأعدائه ما لا يحتسبون قال تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر:٤٧].

كما استدل المفسرون على هذا المعنى بهذه الآية.

وفي النار ما يؤلم البدن ظاهرًا وباطنًا .. وما يؤلم النفس من الخزي والإهانة، والوحدة والإنفراد، واليأس التام والتحير وفقدان الأمل والأهل والولد والمال وأعظم من هذا فقدان النفس وخسارتها .. وفقدان لحظة من الراحة أو لحظة من النوم أو يوما يخفف فيه العذاب .. مع ظلمة مطبقة للعين والنفس ففي الحديث: (فهي سوداء مظلمة)[1]، وظلمة لما يُستقبل ففي الآية الكريمة: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ مع طول مكث من آلاف آلاف السنين لا تنقطع ولا تنتهى من عذاب لا يفتر،نسأل الله تعالى العافية .

وأعظم ما فى النار الحرمان والحجب من كلام الله تعالى ورؤيته ومن نظره إلى عبده وتزكيته سبحانه وتعالى له.

* * *

فالنار دار عدل الله سبحانه وتعالى كما أن الجنة دار فضله.

وكل أفعال الله تعالى وشرعه وقدره بين الفضل والعدل.

أما الظلم فإن الله تعالى نفاه عن نفسه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

ونفي إرادته له: ﴿ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٣١].

وحرمه على نفسه: «إني حرمت الظلم على نفسي»[2].

وحرمه على خلقه: «وجعلته بينكم محرمًا فلا تظّالموا»[3].

* * *

انظر إلى هذا المشهد، قال تعالى:

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤].

بمعنى أنها مع كونها نارًا فهي ليست فسيحة بل هي مزدحمة على أهلها فهم محشورون بين هذه الحجارة، والمقصود بها حجارة الكبريت وهي حجارة سوداء سريعة الاشتعال شديدة التوقد بطيئة الانطفاء نتنة الريح .. تلتصق بالأجساد.

---

(١) سنن الترمذي، جـ٤، ص٧١٠، برقم ٢٥٩١ .
(٢) صحيح مسلم، جـ٤، ص١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧.
(٣) المصدر السابق.

يقول الحافظ ابن كثير: «والمراد بالحجارة ههنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهي أشد الأحجار حرًا إذا حميت أجارنا الله منها. وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، أما الحجارة فهي من كبريت أسود يعذبون به مع النار، وقال مجاهد حجارة من كبريت أنتن من الجيفة. وقال أبو جعفر محمد بن علي: حجارة من كبريت. وقال ابن جريج: حجارة من كبريت أسود في النار. وقال لي عمرو بن دينار: أصلب من هذه الحجارة وأعظم»[1].

ويقول النسفي: «والحجارة وهي حجارة الكبريت فهي أشد توقدًا وأبطأ خمودًا وأنتن رائحة وألصق بالبدن»[2].

ـ وانظر إلى قوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾، فهي جاهزة الآن لاستقبال هؤلاء ومن على دربهم.

* * *

مشهد آخر: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩ - ٢٢].

ـ انظر إلى ثياب مقطعة ومفصلة على مقاس أصحابها .. لهم تمامًا .. وهي من نار ..

هذا ما يرتدون.

ـ وانظر إلى صب الحميم .. فهناك من هو موكل دائمًا باستمرار الصب على رؤوسهم ..

هذا عمله ..

وهذا مقصود فليس في النار من أهلها أحد قد يفلت بل هناك من يصب على رأس كل منهم بعينه فلا يغيب أحد، ثم إن هذا الصب يؤثر في البطون والجلود .. فكيف يصل إلى الجوف؟.

وأين ذِكْر المسافة من الرأس إلى البطن ماذا فُعل بها؟.

هذا لا يذكره السياق بل يترك لنا التفكير ـ على طريقة العرض القرآني ـ لنتملى ما حدث فهذا ما صب على الرأس وهذا ما فعله حتى البطن!.

ـ وانظر إلى إيهامهم بالخروج ثم القمع بملائكة مهيأة لهذا العمل فقط حتى يعود إليهم اليأس..

ـ وانظر إلى البدل: ﴿مِنْهَا مِنْ غَمٍّ﴾، فهي بنفسها الغم حتى صح أن يبدل منها، رغم أن فيها ألوان أُخَر من العذاب لكن يجمعها هذا اللفظ حتى لكأن ما دونها لا يسمى غمًا.

ولهذا ورد عن عليّ ﷺ قوله بعد ما طُعن وهو يوصي إخوانه: (واعلموا أن كل نعيم دون الجنة حقير، وأن كل بلاء دون النار عافية).

* * *

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) تفسير النسفي، جـ١، ص٢٩.

ـ وانظر إلى الأغلال: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢]، كل هذا ليغل، ذلك لأنه عبد آبق، وعندما يخالف مولاه لابد أن يعلم مغبّة المخالفة وأن يعلم أنه لم يكن حرًا في تصرفاته بل كان محكومًا بشريعة تخاطبه، وكونه أعرض أو نسى أو تناسى أو ولاّها ظهره وظن أن الأمر سيمر كأن لم يفعل وأنه سيسوّى بينه وبين من استجاب واستقام على أمر ربه أو أن يفضل عليه تبعًا لما أكرم أو أعطي في الدنيا، فليعلم إذا الآن، وبلا فرصة للإصلاح ولا الاستعتاب ـ فليعلم مغبة ما فرط وما فعل عن كل حركة أو قول أو فعل، أو ترْك وعدم فعل أحيانًا حينما يكون مأمورًا ولا يفعل ..

ونقف أمام قوله تعالى: ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾، وفيها قولان:

الأول: أنه يسلك فيها فيغل بها تمامًا يداه ورجلاه وتجمع يداه إلى ذقنه فيصير حبيسا فيها.

يقول البيضاوي: «فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده وهو فيما بينها مرهق لا يقدر على حركة وتقديم الـ ﴿ سِلْسِلَةٍ ﴾ كتقديم ﴿ الْجَحِيمَ ﴾ للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذب به و﴿ ثُمَّ ﴾ لتفاوت ما بينها في الشدة»[1].

والثاني: أنه يسلك فيها كما يسلك الجراد أو ما يشوى في السلك؛ فتدخل السلسلة من فمه وتخرج من دبره يقول ابن كثير: «قال ابن عباس: ﴿ فَاسْلُكُوهُ ﴾، تدخل في إسته ثم تخرج من فيه ثم يُنْظَمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى، وقال العوفي عن ابن عباس: يسلك في دبره حتى يخرج من منخريه حتى لا يقوم على رجليه»[2].

* * *

ـ وانظر إلى قصد العذاب .. وهو مؤلم للغاية أن يكون هناك قصد إيلامه وإذاقته للعذاب: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦].

* * *

ـ وانظر إلى مدى الإهانة والخزي وهم يسألون: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾، والإجابة كلمة لا تقال إلا للكلب الذي يخسأ مطرودًا مهينًا: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

وهل بعد هذا أمل؟.

* * *

ـ وانظر ماذا يشتهون: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥٤]، وقبلها قال: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥١].

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٣٨٣.
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤، ص ٥٣٥.

وقوله: ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾ للتعبير عن شدة وسرعة الأخذ من الموقف إلى النار.

لكن تستوقفنا شهوتهم .. أي شهوة هي؟.

شهوات الدنيا..؟.

طعام ـ شراب ـ ملبس ـ مسكن ـ زوجة ـ صداقة وصحبة ـ متعة ـ مرح ـ منظر جميل ـ سماع محبب ـ سلامته هو شخصيًا من السوء وتمتعه بالعافية .. هل حرم منها؟.

قطعًا فهي دار حرمان.

لكنْ كثير من السلف قالوا: إنما يشتهون هنا الإيمان لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: ٥٢]، والتناوش هو التناول، وكونه بعيدًا عنهم أنهم ليسوا في دار التكليف فقد انقطع تكليفهم وهم اليوم في دار الجزاء، ثم أعقبه بالحيلولة دون ما يشتهون فالمتشهَي هنا الإيمان والطاعة.

كما روى أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ مر بقبرٍ فقال: «من صاحب هذا القبر؟» فقالوا: فلان، فقال: «ركعتان أحب إلى هذا من بقية دنياكم»[(١)]، وفي رواية قال ﷺ: «ركعتان خفيفتان مما تحقرون وتنفلون، يزيدها هذا في عمله، أحب إليه من بقية دنياكم»[(٢)].

وقال ﷺ: «ما أوتي عبد في هذه الدنيا خير له من أن يؤذن له في ركعتين فيصليهما»[(٣)].

فالدين والشريعة الثقيلة عليهم والمبغوضة إليهم صارت شهوة لهم، فانظر حجم ما لاقوه حتى تبدلت الأمور إلى هذا الحد.

* * *

ـ وانظر إلى حياة لا توصف بحياة .. ولا توصف بموت .. ولا يناله فيها حين صار الموت أمنية فطلبه: ﴿ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٢ - ١٣]، ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وفي بعض الروايات أن مالك يجيبهم بعد ألف سنة بهذه الإجابة[(٤)].

* * *

نحن في الدنيا نتقي عن وجوهنا أي عارض نخافه فما بالهم يتقون بوجوههم النار ويقدمون وجوههم لها: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٢٤].

فهل لأنهم مكبلون مسلسلون دائمًا؟.

أم مع هذا ومع الإهانة فإنهم يتقون بها أن تصل إلى ما هو أهم من الوجوه وهو القلب؟.

﴿ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ [الهمزة: ٧].

---

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٩١).
(٢) رواه ابن المبارك، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥١٨).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة، جـ ٢، ص ١٥٨، ٧٦٣٢.
(٤) رواه الترمذي عن الأعمش موقوفا.

يقول ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، ويفزع فيقال له ولأمثاله من الظالمين ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾، كمن يأتي آمنا يوم القيامة كما قال عز وجل: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾، وقال جل وعلا: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ واكتفي في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر كقول الشاعر:

فما أدري إذا يممت أرضا ... أريد الخير أيهما يليني

يعني: الخير أو الشر»[1].

وقال الإمام النسفي: «﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، كمن أمن من العذاب، فحذف الخبر كما حذف في نظائره، وسوء العذاب شدته، ومعناه أن الإنسان إذا لقى مخوفًا من المخاوف استقبله بيده وطلب أن يقي بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتقى النار إلا بوجهه الذي كان يتقى المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه»[2].

ويقول الطبري: «اختلف أهل التأويل في صفة اتقاء هذا الضال بوجهه سوء العذاب فقال بعضهم: هو أن يرمى به في جهنم مكبوبًا على وجهه فذلك اتقاؤه إياه، وقال آخرون: هو أن ينطلق به إلى النار مكتوفًا ثم يرمى به فيها فأول ما تمس النار وجهه»[3].

* * *

بل سجل سبحانه إهانتهم فذكر في بعض المواطن صراخهم أو نداءهم فلا يجابون فانظر إلى القرآن يعلن إهانتهم حتى لم يرد عليهم في كتابه.

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا [4] وَكُبَرَآءَنَا [5] فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٧]، ولم يرد ذكر للرد عليهم بل تجاوزهم السياق لتوجيه خطاب للمؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وكذلك نفس الأمر متكرر في سورة فصلت سجل تعالى نداءهم ثم أهملهم وذكر بشرى المؤمنين بتنزل الملائكة على قلوبهم في الدنيا بالعلم والهدى وإرادات الخير وبالبيان في مواضع الشبه وبالتثبيت والبشارة عند الخوف وعند سياق الموت وفي القبور ثم في مواطن وأحوال الآخرة.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾، فتركهم السياق دون إجابة والتفت إلى المؤمنين يبشرهم في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٢٩ - ٣١]، يعني: ما تطلبونه.

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٦٧.
(٢) تفسير النسفي، جـ ٤، ص ٥٣.
(٣) تفسير الطبري، جـ ١٠، ص ٦٢٩ .
(٤) القيادات الدنيوية المنحرفة.
(٥) القيادات الدينية المنحرفة.

وهو فيها مقرّن مع عدوه .. مع قرينه من الشياطين أو مَن أغواه في الدنيا.

﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [إبراهيم: ٤٩]، فتقرن يداه إلى عنقه ويقرن مع عدوه.

* * *

وهي عليهم مغلقة أبدًا ، لكنها تنفتح لها صدورهم حتى تطلع على أفئدتهم وتنفذ إليهم: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة: ٥ - ٩]. يقول ابن كثير: «أي: ليلقين هذا الذي جمع مالاً فعدده في الحطمة وهي اسم صفة من أسماء النار لأنها تحطم من فيها ولهذا قال: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾، قال ثابت البناني: تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء، ثم يقول: لقد بلغ منهم العذاب ،ثم يبكي»[1].

* * *

ـ وانظر إلى البغضاء بين كل مَن فيها .. والتعادي والتلاعن: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ـ وانظر إلى التخاصم وطلب كل طائفة زيادة عذاب الأخرى: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ ﴾ يعني: الضعفاء ﴿ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ يعني: السادة الكبراء ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨ - ٣٩].

ـ وانظر إلى التخاصم: ﴿ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٦٠ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ۝٦١ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٥٩ - ٦٤].

* * *

وانظر إلى طعامهم وشرابهم: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۝٦٥ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٦٦ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝٦٧ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ۝٦٨ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٧٠].

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

والهيم داء يصيب الإبل فتشرب ولا ترتوي، ثم أضاف تعالى هذا المعنى الشديد: ﴿ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾، والنُّزُل: هو أول ما يعد للضيف ، ففهم من هذا التعبير أمران:

أولاً: أن هذا تهكم بهم واستهانة بشأنهم جزاء لتهكمهم واستهانتهم برب العالمين وبدينه وبرسله وبأوليائه المؤمنين، فالمعنى أن هذه أول ضيافتهم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٧٠٩.

وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩]، وهو نفس المعنى، والمرتفق ما يرتفق وينتفع به في الحياة، وبئس المرتفق جهنم.

ثانيًا: إن كان هذا الذي وصف هو أول الضيافة فماذا ينتظرهم؟ فيفهم منها أن لهم ما لا يوصف ولا يخطر على البال من ألوان العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧].

يقول البيضاوي: «﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾، ما يقام للنزيل وفيه تهكم وتنبيه على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحقر دونه»(١).

وهو أمر شديد، ولنا عودة مع الغرض والمقصود من هذه الشدة في "المقاصد من الترهيب".

* * *

ـ وانظر إلى لحافهم ومهادهم، قال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ يعني: فراش ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ يعني: تغشاهم، جمع غاشية ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤١].

* * *

ـ وانظر إلى تقابل ألوان العذاب بحيث يُعذبون بأنواع متضادة بين شدة الحر وشدة البرد وأشباهها من المتقابلات، قال تعالى: ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ [ص: ٥٥ - ٦١].

الحميم والغساق متقابلان؛ هذا أشد الحر وهذا أشد البرد وهكذا سائر أنواع العذاب .. أمور متقابلة ومتضادة.

يقول الحافظ بن كثير: « لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل: ﴿ هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ ﴾، وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل المخالفون لرسل الله ﷺ ﴿ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ أي: لسوء منقلب ومرجع ثم فسره بقوله جل وعلا: ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي: يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾، أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم.

ولهذا قال عز وجل: ﴿ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ أي: وأشياء من هذا القبيل: الشيء وضده يعاقبون بها قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ﷺ

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٥٢٤.

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن دلوا من غساق يهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا»، ورواه الترمذي عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج به.

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾، ألوان من العذاب وقال غيره كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوي إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به ويهانون بسببه»[1].

ويقول رحمه الله: « فأخبر أنهم تارة يكونون في أكل زقوم وتارة في شرب حميم وتارة يردون إلى جحيم عياذا بالله من ذلك وهكذا قال تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾، وقال: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوع العذاب عليهم وتكراره وأنواعه وأشكاله مما لا يحصيه إلا الله عز وجل جزاءً وفاقًا: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾»[2].

* * *

ـ وانظر إلى التقريع والتوبيخ والإهانة مع الألم:

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان: ٤٠ - ٥٠].

وهم يذكَّرون على بابها بالرسل وبالآيات ولماذا لم يتبعوها .. فمع الهول والخوف يقرون أنهم مخطئون.

ومع كل هذا فإن الخزي والإهانة أعظم من كل ألم، وهذا ما أقلق وأزعج أولي الألباب حتى تركوا النوم: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

ودفعهم لطريق النجاة والحياة في سبيل الله حتى تعرضوا للقتل والإخراج.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

ـ فانظر إلى أشد ما آلمهم في النار: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ﴾.

---

(١) ابن كثير، جـ ٤، ص ٥٥.
(٢) المصدر السابق، جـ ٢، ص ٦٩٢.

هذا أشد ما يلاقي ..

فذكر تعالى ما ترتب على خوفهم من الأثر الصالح لهم وللحياة كلها من حولهم فقال تعالى بعدها: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

* * *

وأشد من هذا أنه خزي بعدل يقر المخزيّ فيه والمهان بأنه يستحق هذا ويقر أن هذا عدل الله تعالى جرى عليه وأن الله محمود على كل حال، وفي الحديث: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»[(١)]، فلا يبقى لأحد حجة وفي الحديث الآخر: «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة»[(٢)].

* * *

ثم فوق كل هذا الحرمان من أعظم ما تطلب الفِطرُ وهو رب العالمين .. رؤيته ورضاه، والتبكيت للنفس على مخالفته وأنه أعظم من أن يخالَف حتى لو كان ثمة موت لمات أحدهم حياءً وندمًا وإعظامًا لجناب الله؛ كيف خالفناه وكيف لم نطلب رضاه وهل تصح المعصية لرب العالمين؟ وهل كان يستحق منا هذا مع مقامه وإنعامه؟ فالله تعالى هو الذي يستحق أن يُعبد ويطاع، لذاته ولأفعاله سبحانه.

هل أحد يستحق الحمد أو العبادة أو العمل معه أو من دونه؟.

كيف ضاع العمر كيف آثرنا عليه غيره كيف حُرمت القلوب من ذوق حبه ولذة التعبد له والأنس به والاطمئنان بجنابه والتنعم برضاه؟.

كيف ضاع نصيبنا منه: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٨٢]، يعني: حظكم من الرسالة والكتاب فإن الرزق هو الحظ والنصيب.

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ثم أوضحوا ندمهم أكثر فقالوا: ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٩].

وفي موضع آخر يقولون: ﴿ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦].

﴿ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

هذا كثير من المشاهد وليس كلها، وأهوال أخرى يوم العرض على رب العالمين ..

ودونها في القبور ..

* * *

(١) ابن كثير، جـ ٤، ص ٥١٠.
(٢) المصدر السابق.

مقاصد ذكر الترهيب في كتاب الله تعالى

المقصد الأول: عِلْمُ وبيان أن الله تعالى هو الملك ونحن عبيده .. أرقاؤه .. ملكه سبحانه ومنَ خرج عن مقتضى العبودية عليه أن يلقى جزاء مخالفة الملك

وليس للعبد الخروج عن طوع سيده .. ولا مخالفته .. وعليه أن يقف على قدم الخدمة له سبحانه يأتمر بأمره وينتهي عن نهيه فيفعل ما يؤمر، بل وأفضل من هذا ألا يفعل إلا بأمر.

فإنه متقلب في نعمه يُغذى ويُطعم ويُسقى ويُستر وتُلبى حاجاته من قِبَل سيده الكريم القاهر.

وطالما أننا عبيد مأمورون .. أرقاء .. ملك ربنا فليس لأحد الخروج عن الطاعة، فإن كنا أحرارًا بين الخلق فلسنا أحرارًا أمام رب العالمين .. بل عبيد وإماء مملوكون.

ومن يخرج عن طوع سيده ويخالف أمره فليعلم أن هناك جزاء وعقاب مترتب على عمله أو على عدم عمله بما أُمر.

أنت تفعل وترتكب وتمضي .. ولكن هذه الأفعال لها مسئولية ولو لم تقدرها فهي موجودة ومحسوبة، وستلقاها.

تهتم الملائكة الكرام الكاتبون بأعمالك ونتائجها وآثارها حتى بعد موتك .. حتى لو لم يكن في حسبانك كل هذا الأثر لكنه عملك وأثرك.

فإن عملت غافلاً عن الجزاء وارتكبت .. فهو موجود حتمًا ستلاقيه شئت أم أبيت.

نحن عبيد وهناك ملك ..

فليعلم العبيد أنهم لا يخرجون عن قبضة سيدهم .. وأنه عند المخالفة فالملك يعاقب ويجازي .. فمن يتمادى اغترارًا بالإمهال الرباني والحلم والصبر فلا يظن الحلم والصبر نسيانًا ولا يظن نفسه سيتساوى مع القانت القائم المطيع.

فالعبد الآبق، عندما يخالف مولاه لابد أن يعلم مغبّة المخالفة، وأن يعلم أنه لم يكن حرًا في تصرفاته بل كان محكومًا بشريعة تخاطبه، وكونه أعرض أو نسى أو تناسى أو ولاها ظهره وظن أن الأمر سيمر كأن لم يفعل وأنه سيسوَّى بينه وبين من استجاب واستقام على أمر ربه أو أن يفضل عليه تبعًا لما أكرم أو أعطى في الدنيا، فليعلم أن هناك مغبة لما يفرط ولما يفعل عن كل حركة أو قول أو فعل، أو ترْك وعدم فعل أحيانًا حينما يكون مأمورًا ولا يفعل ..

* * *

ومما يذكر في هذا السياق كشعور بمعنى العبودية ومعنى العبد المقيَّد بإذن سيده تعالى ما ورد من توبة بشر بن الحارث الحافي: «.. وحكي أن بشرًا كان في زمن لهوه في داره وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون فاجتاز بهم رجل من الصالحين فدق الباب فخرجت إليه جارية فقال: صاحب هذه الدار حر

أو عبد؟. فقالت: بل حر. فقال: صدقت لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب. فسمع بشر محاورتهما فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد ولى الرجل فقال للجارية: ويحك من كلمك على الباب. فأخبرته بما جرى فقال: أي ناحية أخذ الرجل. فقالت: كذا فتبعه بشر حتى لحقه فقال له: يا سيدي أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية. قال: نعم. قال: أعد عليّ الكلام فأعاده عليه فمرغ بشر خديه على الأرض رقال: بل عبد عبد ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عرف بالحفاء فقيل له: لم لا تلبس نعلاً؟ قال: لأني ما صالحني مولاي إلا وأنا حاف فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات»[1].

* * *

(١) التوابين، جـ ١، ص ٢١٠، المؤلف: عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد.

المقصد الثاني
أن نعلم أن خطاب الله تعالى لنا خطاب جاد

هو ليس إحسانًا قابلاً للترك .. بل هو خطاب ـ وإن تضمن قمة الإحسان ـ فليس لأحد الخروج عنه.

هو خطاب جاد من أعرض عنه فلم يلتفت إليه ولم يعره اهتمامًا ولم ينشغل به بل انشغل باهتماماته الشخصية فهو مُعرِض وله جزاء: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

فالتعامي عن الآيات والانشغال عنها ونسيانها جريمة يقابلها العمى الحسي في الآخرة، والجريمة ليست أنه فعل كذا فقط بل الجريمة كذلك أنه لم يفعل كذا ولم يقم بما أمر به.

إن الله تعالى وإن لم يُكره أحدًا على اعتناق هذا الدين قدَرًا ولم يأمر بالإكراه بل نهى عنه شرعًا، فهذا ليس معناه ـ كما يفهم بعض الجاهلين ـ أن الموضوع مجرد نصيحة من شاء أخذ بها أو أن لأحد أن يطيع ربه وله أن يعصيه.

إن مجرد من ينشغل عن هذا الدين له وصف (مُعرِض) وتُوعد على هذا، ومن عانده أو رفضه أو كذبه فله وصف (كافر أو مكذب أو معاند)، ومن خالف فهو (فاسق أو فاجر) ولذا قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ [الطارق: ١٣ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨].

وقال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ: ١ - ٥]، فهذا الدين هو أعظم نبأ وحدث يجب أن يلتفت له البشر لأنه خطاب الله لهم وعليه يترتب مصيرهم.

* * *

المقصد الثالث
أن نعلم جدية الحياة ذاتها وأنها ليست عبثًا ..

وبيان أن اختيارات العبد يترتب عليها جزاء حقيقي وضخم فوق ما يتصور؛ فعلى العبد أن يدرك مسئولية أفعاله وأقواله ومعتقداته..

فاعتقاد الإنسان يجب ألا يكون عبثًا أو هزلاً أو استخفافًا .. فالخلو من المعتقد الصحيح جريمة .. والشك فى الحق جريمة: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥٤]، ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الطارق: ٣٢ - ٣٧].

وبالتالي فالبحث عن المعتقد الصحيح والتصور الحق واجب هام وجاد ويجب أن يبحث عنه بجدية.

والأقوال المغضبة لله تعالى جريمة قد توجب على صاحبها الخلود فى النار: ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤]، الآية.

والأفعال المخالفة لما أنزل الله تعالى قد تودي بصاحبها وتهلكه هلاكًا لا صلاح بعده: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٧].

واختيارات الإنسان في مواقفه بين الحق والباطل وشراء أحدهما ببيع الآخر والتخلي عنه مسئولية كبيرة جدًا .. إن عمرًا يقضيه الإنسان عاقلاً قويًا .. ثلاثون أو أربعون سنة أو أكثر قليلاً يترتب عليه خلد دائم فى نعيم أو فى عذاب مهين ومخزي ومؤلم ومتنوع مع ما يورثه من سخط رب العالمين وغضبه حتى يغضب عليه كل شىء ويلعنه كل شيء: ﴿ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

المعتقد مسئولية، والكلمة والموقف مسئولية، وأي عمل تعمله أو تمتنع عما يجب عليك عمله مسئولية ضخمة له تبعاته والسؤال عنه أمام رب العالمين ..

فمراقبة الكلمة والموقف والعمل والإستعداد له والشعور بالمسئولية تجاهه مقصد هام للترهيب المذكور فى كتاب الله تعالى.

حياتك ليست عبثًا وإن ظننتها كذلك، وأفعالك لن تمر وإن غفلت عن ذلك، وكلماتك لن تُنسى لك بل مكتوبة ومعدودة، ومواقفك وما ترتب عليها من خير أو شر كلها محسوبة لك..

فمن عبث بحياته أو هزأ بها فلن تكون الحياة هازئة عابثة من أجله، بل ستبقى جادة وستصدمه بجديتها فى قبره ثم أمام رب العالمين ثم فى تلقيه جزاءه من ربه تعالى.

ومن تعامل مع حياته وعمره والدقائق والساعات والأيام تعاملاً هازئًا فإنه لم يفهم القرآن ولم يفهم معنى الحياة ولم يدرك قيمة العمر ومعنى التكليف الرباني لنا .. فالحياة مسئولية خطيرة وضخمة ونحن فى خطر شديد ولابد أن نتحفز للنجاة.

المقصد الرابع

الرحمة والنعمة في هذا الخطاب

ففى خطاب الترهيب قصد رحمة الخلق والإنعام عليهم بتحذيرهم أسوأ المهالك على الإطلاق

وقد يعجب الناس من وجود الرحمة في هذا.

والعجب منهم هم ـ لأن الإنذار من أعظم المخاوف هو من أعظم الرحمات وأجلّ النعم.

وقد عده رب العالمين من الآلاء الكبار التي يمن بها على الإنس والجن:

قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [فاطر: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٣١ - ٤٥].

فمع كل تخويف وذكْر لآيات العذاب يسأل ربنا سبحانه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾، على أن هذا من الآلاء التي يمتن الله تعالى علينا بها، قد نفهم معنى هذه الآية المكررة فى سرد النعم الدنيوية قبل هذا المقطع وقد نفهمها فى سرد وصف الجنة بعده ، أما هنا فوجه الامتنان هو الإنذار وقت التكليف وإمكانية النجاة.

وهذا توجيه البغوي وطائفة من المفسرين ذكره عنه شيخ الإسلام ووافقه عليه، يقول رحمه الله: «فإذا قيل أن الرب تعالى حكيم رحيم أحسن كل شيء خلقه وهو أرحم الراحمين والخير بيديه والشر ليس إليه لا يفعل إلا خيرًا وما خلقه من ألم لبعض الحيوان ومن أعماله المذمومة[1] فله فيه حكمة عظيمة ونعمة جسيمة كان هذا حقًا وهو مدح للرب.

وأما إذا قيل يخلق الشر الذي لا خير فيه ولا منفعة لأحد ولا له فيه حكمة ولا رحمة ويعذب الناس بلا ذنب لم يكن مدحًا له بل العكس، وقد بينا بعض ما في خلق جهنم وإبليس والسيئات من الحكمة والرحمة، وما لم نعلم أعظم، والله سبحانه وتعالى يستحق الحمد والحب والرضا لذاته ولإحسانه هذا حمد شكر وذاك حمد مطلقًا.

وقد ذكرنا في غير هذا أن ما خلقه فهو نعمة يستحق عليها الشكر وهو من آلائه ولهذا قال في آخر سورة النجم: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾.

---

(١) أي أعمال الإنسان المذمومة.

وفي سورة الرحمن يذكر: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ونحو ذلك ويقول عقبه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، قال طائفة واللفظ للبغوي ثم ذكر قوله: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾، قال كلما ذكر الله عز وجل من قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، فإنه مواعظ وهو نعمة لأنه يزجر عن المعاصي، وقال آخرون منهم الزجاج وابن الجوزي في الآيات أي: فبأي آلا ربكما تكذبان بهذه الأشياء لأنها كلها نعم في دلالتها إياكم على توحيده ورزقه إياكم ما به قوامكم. هذا قالوه في سورة الرحمن.

وقالوا في قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾، فبأي نِعَم ربك التي تدل على وحدانيته تشكك، وقيل: تشك وتجادل، وقال ابن عباس: تكذب.

قلت: ضمن تتمارى معنى تكذب ولهذا عداه بالتاء فإنه تفاعل من المرآه يقال تمارينا في الهلال ومرآء في القرآن كفر وهو يكون لتكذيب وتشكيك، ويقال لما كان الخطاب لهم قال: ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ أي يتمارون ولم يقل تمتري لأن التفاعل يكون بين اثنين. قالوا: ﴿لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، قيل: الوليد بن المغيرة فإنه قال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ثم التفت إليه فقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، كما قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ففي كل ما خلقه إحسان إلى عباده يشكر عليه وله فيه حكمة تعود إليه يستحق أن يحمد عليها لذاته فجميع المخلوقات فيها إنعام إلى عباده كالثقلين المخاطبين بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، من جهة أنها آيات يحصل بها هدايتهم وتدل على وحدانيته وصدق أنبيائه ولهذا قال عقيبه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾، قيل: محمد، وقيل: القرآن وهما متلازمان يقول هذا نذير أنذر بما أنذرت به الرسل والكتب الأولى وقوله: ﴿مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ أي: من جنسها فأفضل النعم نعمة الإيمان، وكل مخلوق فهو من الآيات التي يحصل بها ما يحصل من هذه النعمة قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾»ا.هـ[1].

فالإنذار وقت الإمهال من أعظم نعم رب العالمين طالما أنك تمتلك فرصة النجاة، ولذلك فأعظم رأس مال للعبد هو عمره وأنفاسه وإبقاؤه وقت التكليف بحيث يملك فرصة الهروب والفوز بالقرب فإن لم تكن هذه نعمة فأي نعمة إذًا ..؟.

ولهذا امتن الله علينا باستنقاذنا من النار والشرك: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

قال تعالى: ﴿حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ١ - ٦].

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ ٨، ص٢٠٧ - ٢٠٩.

المقصد الخامس

الـردع

فكل هذه المشاهد جاءت عقب أو قبل ذكْر انحراف ما فقصدها الأساس الردع وليس النواح

وليس المقصود بها أن يتألم الناس فحسب بل وظيفتها الأساسية كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦]، فالتخويف للوصول إلى غاية معينة .. ولتصحيح انحراف معين .. ولتغيير واقع معين وللقيام بأمر مقصود أو الردع عن صفة مذمومة أو منهج مختل.

فليس المقصود هو العويل والندب والصراخ.

بل الإيقاظ بشكله وبمضمونه السُنّي: (وجل القلب ودمع العين وقشعريرة الجلد).

وهذا كله لا ينتهي عند هذا الحد وإنما لتغيير واقع معين.

وانظر إلى بعض الأمثلة لتبين هذه القاعدة:

آيات سورة الصافات في الوعيد الشديد:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾.

أُعقبت بعد وصف هذا العذاب بإيراد سببه وموجبه وما هو مطلوب تصحيحه والنهي عنه فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ﴾ يعني: وجدوا ﴿ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٧٠]، يعني: يسرعون، وعُبر بصيغة نائب الفاعل للدلالة على سرعة الاتباع والاندفاع الباطل خلف آباء مبطلين،كأن غيرهم يدفعهم دفعًا فلا يملكون التوقف، فهو عناد الحق ومتابعة الباطل اتباعًا لآبائهم والتنازل عن إرادتهم فسيقت الآيات لإيقاظ هؤلاء لمتابعة الحق بأدلته، ولترك الجري وراء عماية وجهالة لمجرد فعل الآباء الباطل.

* * *

وآيات سورة الحاقة:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾.

أعقب بذكر السبب: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة:٣٣ - ٣٧].

فعنده أولاً: خلل في علاقته بالله بعدم أداء حقه الخالص إليه بتوحيده فلم يوحده: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴾، والإيمان بالله يعني: التصديق به والخضوع له وحده بإفراده بالعبادة والطاعة.

وعنده ثانيًا: خلل آخر في علاقته بالخلق: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾.

فعلم من الآيات ارتباطها بخلل ما طلبًا لإصلاحه وليس تخويفًا مجردًا.

ولهذا لما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾، ذكر بعدها غاية التخويف فقال ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٦]، سواء فسرت التقوى هنا بترك الشرك، أم بالتقوى العامة وهي ترك الشرك وترك المخالفات الشرعية والقيام بالطاعة.

* * *

آيات سورة ص:

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٥٥ - ٦٤].

الحميم والغساق متقابلان؛ هذا أشد الحر وهذا أشد البرد، وهكذا سائر أنواع العذاب .. أمور متقابلة ومتضادة، كما مرت الإشارة إليه.

ثم أعقبت الآيات بإيراد سبب دخولهم النار فقال تعالى آمرًا نبيّه ومعرِّضًا بهم: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾[ص: ٦٥]، فالسبب عدم قبولهم لـ (لا إله إلا الله) ورفضهم لها، وشركهم بربهم.

* * *

آيات سورة الدخان:

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾، ذكر بعدها وقبلها السبب، فذكر بعدها: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾[الدخان: ٤٣ - ٥٠]، فالعزة على الله ودينه والتعزز في هذا بما أوتي في الدنيا مع تسميته بهذا .. بـ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ منعه هذا من قبول الهدى؛ فهو الكبر والأنفة على قبول أمر الله تعالى واتباع رسله.

وذكر قبلها إنكار البعث مع الاستهزاء: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٧].

فطلبهم إحياء الآباء في الدنيا كأن الأمر عبث، إذن فهذا إنكار وتكذيب مع الكبر والاستهانة والاستهزاء، فلهذا سيقت الآيات بهذه الشدة لردعهم عن العبث والاستهزاء ولمنعهم من الكبر مع ما سيق لهم من الأدلة العقلية في نفس السياق.

فذكر أن تعززه وتكبره وتكرمه وتسمّيه بهذه الصفات منعته من قبول أمر الله تعالى ومن اتباع الهدى والخضوع له كأنه كان يقول كيف للعزيز الكريم أن يتبع هذا النبي وكيف للعزيز الكريم أن يعذب في الآخرة؟.

فإن كان ثمة آخرة فمن أكرمه هنا فسيكرمه هناك، هذا منطق جميع هؤلاء: ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٦].

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [فصلت: ٥٠].

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠].

ومقصود هؤلاء جميعًا أن إكرامهم في الدنيا دليل على رضا الله تعالى من جانب وأنه يعلم أنهم يستحقون هذا، ومن جانب آخر فإنهم سيعاملون في الآخرة بنفس الإكرام، وهذه فتنة وقع فيها الكثير، فهل يعلم هؤلاء الجهلة أن جميع الأحوال فى الدنيا اختبار؛ هذا مُختبَر بالعطاء وهذا بالمنع، كما ذكر تعالى هذين الحالين وقولَ مَن أُعطى بأنه أُكرم كرمًا يدل على رضوان ربه عليه وأنه ينتظره في الآخرة ما هو أعظم، وقول من حُرم بأنه أُهين، ونفى ربنا كلا القولين: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾، ثم قال تعالى نافيًا كلا القولين: ﴿ كَلَّا ﴾ ثم أخبر تعالى أن هذا خلل في قولكم واعتقادكم، وعندكم خلل آخر أكبر في أعمالكم، فذكر تعالى خلل العمل فقال: ﴿ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٨].

ومن أراد المزيد فلينظر في أقوال المفسرين لهذه الآيات.

ثم ذكر شكه في لقاء الله وهذا يستلزم كفره بالله وسبه له.

ـ فإنه إما يتهمه بنقص العلم.

ولهذا لما أورد تعالى أقوال بعض منكري الآخرة رد عليهم بشمول العلم كحجة عليهم وكبيان أن قولهم سبة لله تعالى في علمه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

ـ أو سُبة لله تعالى بنقص القدرة.

ولهذا رد في بعض المواضع عليهم بشمول القدرة كحجة عليهم وكبيان أن قولهم سبة لله تعالى في قدرته فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨١ - ٨٢]، والآيات كثيرة جدًا في هذا المعنى.

ـ أو بنقص الحكمة وأن الحياة عبث: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]، والمعنى واضح كسابقه.

* * *

آيات سورة ق:

يذكر في ثناياها سبب العذاب وأنه بسبب خلل في حق الله وخلل في حق العباد: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٤ - ٢٩]، فأشار بقوله: ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ﴾، إلى الخلل في حق العباد، وأشار بقوله: ﴿ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾، و﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾، إلى الخلل في حق الله تعالى.

* * *

وهذه أمثلة فقط، ولكن جميع موارد آيات الترهيب على هذا المنوال؛ فإذا تتبعتها وجدت صحة هذه القاعدة، وأن الترهيب مرتبط بالنهي عن انحراف ما أوخلل ما أو دافع لعمل ما.

* * *

فلابد من الربط بين الآيات وبين ما سيقت من أجله في الفهم والتذكر وفي الوعظ .. فقد رأينا كثيرًا ممن يبكي في الصلاة حتى يخرج عن السنة في انفعالاته حتى أنه قد يتلفظ بألفاظ تبطل الصلاة ومع هذا يتناقض فيخرج من الصلاة ولم يرتدع عما كان يردعه ربه عنه وكان هو يبكي من أجله ..!.

ورأينا من يعظ الناس يريد في موعظته من الناس الوصول لهذه الحالة النفسية أثناء الموعظة فقط فإن تحققت فكأنما وصل لمراده ..!.

بينما المقصود الردع مع الانفعال السني لأن تعظيم القلب لله ووجله ودمعة العين وقشعريرة الجلد من خشية الله هو السبيل لحصول هذا الردع.

وعند التذكر أو التذكير لغيرنا يجب أن تقترن المواعظ والادكار بما هو مطلوب، مع العلم بالآفات المطلوب تغييرها وعلاجها وذلك بالعلم بالحق وهو القرآن ورسالته، ومن العلم بالخلق وما يحتاجونه بحسب الزمان والمكان وظروف الأمة واحتياجاتها، والبصير في هذا سعيد ويسعد الخلق.

* * *

ولهذا نص ابن رجب الحنبلي وغيره من أهل العلم أن الخوف المطلوب هو ما يردع عن الشرك والكفر، وما يردع عن المعاصي والمحارم ويدفع العبد للقيام بالواجب الشرعي، فإن كان خوف يردع عن المكروهات والمتشابهات ويحمل العبد على المستحبات فهو مستحب، وما زاد على هذا بحيث يتوجع العبد فلا يقدر على عمل أو يدفعه إلى الانقطاع عن القيام بما أمر فلا دليل على استحبابه ..

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله).

ويساعد على هذا دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك»، فطلب ﷺ من الخوف والخشية ما يمنع عن المعصية، وقد أوتي جوامع الكلم، وألفاظه مقصودة ﷺ، ولهذا أنكر على البراء بن عازب تغييره لبعض الألفاظ التي علمه إياها لما علمه دعاءً عند النوم في آخره: «آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت» فقال البراء: «ورسولك الذي أرسلت» فقال ﷺ: «ونبيك الذي أرسلت» فلم يقره على هذا التغيير رغم أن المعنى قريب.

* * *

فائدة هامة

مما ينبه عليه أن الأفعال العظام والمكفرات والجرائم الكبرى التي ذكرت في الآيات لا يقتصر الردع عليها فقط، بل ما شابهها من الأفعال وما قاربها له من الوعيد نصيب وإن صدرت من المسلم، وإلا لما اتعظ الناس ولا ازدجروا ولقالوا هذا تُوعد به الكفار المغرِقين في الضلالة أما أفعالنا فهيّنة يسيرة ولم نفعل ما ورد في الآيات بنصه.

فهذا عدم فهم لكتاب الله تعالى؛ فإن من شابههم في عمله بحيث كان له منهم نصيب في الشبه كان له نصيب من الذم ومن الوعيد بقسط ما ارتكب وما اكتسب من الأفعال والصفات، وهذا مأخذ الصحابة رضي الله عنهم للقرآن وأحد مآخذ ازدجارهم وخوفهم ووعظهم لغيرهم من الخلق، فانظر إلى قول عمر ﷺ لابنه ـ وقيل لجابر بن عبد الله ـ وقد أراد أن يشتري لحمًا فقال لم؟ قال: اشتهيه، قال: أو كلما اشتهيت اشتريت؟ أين تذهب بكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]، رغم أن هذه الآية نزلت فى الكفار لا فى المسلمين.

ويقول الشاطبي معلقًا على هذا الحديث وموضحًا لهذه القاعدة الهامة في مجال الاتعاظ والانزجار عن محارم رب العالمين وعن الضلالة والابتداع .. يقول رحمه الله:

«.. وبيانه تعرض لذكر الطرفين الواضحين:

أحدهما: طرف السلامة والنجدة من غير داخلة شبهة ولا إلمام بدعة وهو قوله ﷺ: «ما أنا عليه وأصحابي».

والثاني: طرف الإغراق في البدعة وهو الذي تكون فيه البدعة كلية، أو تخرم أصلاً كليًا، **جريًا على عادة الله في كتابه العزيز؛ لأنه تعالى لما ذكر أهل الخير وأهل الشر ذكر كل فريق منهم بأعلى ما يحمل من خير أو شر ليبقى المؤمن فيها بين الطرفين خائفًا راجيًا؛ إذ جعل التنبيه بالطرفين الواضحين؛ فإن الخير على مراتب بعضها أعلى من بعض والشر على مراتب بعضها أشد من بعض، فإذا ذكر أهل الخير الذين في أعلى الدرجات خاف أهل الخير الذين دونهم أن لا يلحقوا بهم أو رجوا أن يلحقوا بهم، وإذا ذكر أهل الشر الذين في أسفل المراتب خاف أهل الشر الذين دونهم أن يلحقوا بهم أو رجوا أن لا يلحقوا بهم.**

وهذا المعنى معلوم بالاستقراء وذلك الاستقراء ـ إذ تم ـ يدل على قصد الشارع إلى ذلك المعنى.

وهذا الحديث وإن لم يكن هنالك ولكن معناه صحيح يشهد له الاستقراء لمن تتبع آيات القرآن الكريم ويشهد لما تقدم من أن هذا المعنى مقصود استشهاد عمر بن الخطاب ﷺ بمثله إذ رأى بعض أصحابه وقد اشترى لحمًا بدرهم: أين تذهب بكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾، **والآية إنما نزلت في الكفار لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، ولم يمنعه ﷺ إنزالها في الكفار من الاستشهاد بها في مواضع اعتبارًا بما تقدم وهو أصل شرعي تبين في كتاب "الموافقات".**

فالحاصل أن من عد الفرق من المبتدعة الابتداع الجزئي لا يبلغ مبلغ أهل البدع في الكليات في الذم والتصريح بالوعيد بالنار ولكنهم اشتركوا في المعنى المقتضي للذم والوعيد كما اشترك في اللفظ صاحب اللحم ـ حين تناول بعض الطيبات على وجه فيه كراهية ما في اجتهاد عمر ـ مع من أذهب طيباته في حياته الدنيا من الكفار وإن كان ما بينهما من البون البعيد والقرب والبعد من العارف المذموم بحسب ما يظهر من الأدلة للمجتهد وقد تقدم بسط ذلك في بابه والحمد لله»[1].

ويقول في "الموافقات": «والثانية أن الآية وإن نزلت في أهل الأصنام فإن لأهل الإسلام فيها نظرًا بالنسبة إليهم ألا ترى أن عمر بن الخطاب قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان أين تذهب بكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾، وكان هو يعتبر نفسه بها، وإنما أنزلت في الكفار لقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ﴾، ولهذا المعنى تقرير في العموم والخصوص، فإذا كان كذلك صح التنزيل بالنسبة إلى النفس الأمارة في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، والله أعلم»[2].

ويقول أيضًا في "الموافقات": «على ما تقرر وبالجواب عنه يتضح المطلوب اتضاحًا أكمل. فلقائل أن يقول إن السلف الصالح مع معرفتهم بمقاصد الشريعة وكونهم عربًا قد أخذوا بعموم اللفظ وإن كان سياق الاستعمال يدل على خلاف ذلك وهو دليل على أن المعتبر عندهم في اللفظ عمومه بحسب اللفظ الإفرادي وإن عارضه السياق، وإذا كان كذلك عندهم صار ما يبين لهم خصوصه كالأمثلة المتقدمة مما خص بالمنفصل لا مما وضع في الاستعمال على العموم المدعى.

ولهذا الموضع من كلامهم أمثلة:

منها أن عمر بن الخطاب كان يتخذ الخشن من الطعام كما كان يلبس المرقع في خلافته فقيل له لو اتخذت طعامًا ألين من هذا فقال: أخشى أن تعجل طيباتي يقول الله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ الحديث، وجاء أنه قال لأصحابه وقد رأى بعضهم قد توسع في الإنفاق شيئًا أين تذهب بكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ الآية، وسياق الآية يقتضي أنها عذاب الهون فالآية غير لائقة بحالة المؤمنين ومع ذلك فقد أخذها عمر مستندًا في ترك الإسراف مطلقًا وله أصل في الصحيح في حديث المرأتين المتظاهرتين على النبي ﷺ حيث قال عمر للنبي ﷺ ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدونه فاستوى جالسًا فقال: «أوفي شك يا ابن الخطاب أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»، فهذا يشير إلى مأخذ عمر في الآية وإن دل السياق على خلافه.

وفي حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة أن معاوية قال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ إلى آخر الآيتين، فجعل مقتضى الحديث وهو في أهل الإسلام داخلاً تحت عموم الآية وهي في الكفار لقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾، فدل على الأخذ بعموم (مَن) في غير الكفار أيضًا.

---

(١) الاعتصام، جـ ١، ص ٤٧٤.
(٢) الموافقات، جـ ٣، ص ٣٩٩.

وفي "البخاري" عن محمد بن عبد الرحمن قال قطع على أهل المدينة بعث فاكتتبت فيه فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته فنهاني عن ذلك أشد النهي ثم قال: أخبرني ابن عباس أن أناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على عهد رسول الله ﷺ يأتي السهم يرمي به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضرب فيقتل فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ الآية، فهذا أيضًا من ذلك لأن الآية عامة فيمن كثر سواد المشركين ثم إن عكرمة أخذها على وجه أعم من ذلك.

وفي الترمذي والنسائي عن ابن عباس لما نزلت: ﴿ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم ﴾ الآية، دخل قلوبهم منه شيء لم يدخل من شيء، فقالوا للنبي ﷺ، فقال: «قولوا سمعنا وأطعنا»، فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية، ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾، قال: «قد فعلت ربنا»، ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال: «قد فعلت» الحديث، الخ.

فهموا من الآية العموم وأقره النبي ﷺ ونزل بعدها: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، على وجه النسخ أو غيره مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾، وهي قاعدة مكية كلية ففي هذا ما يدل على صحة الأخذ بالعموم اللفظي وإن دل الاستعمال اللغوي أو الشرعي على خلافه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ ﴾ الآية، فإنها نزلت فيمن ارتد عن الإسلام بدليل قوله بعد: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ الآية، ثم إن عامة العلماء استدلوا بها على كون الإجماع حجة وأن مخالفه عاص وعلى أن الابتداع في الدين مذموم وقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ﴾، ظاهر مساق الآية أنها في الكفار والمنافقين أو غيرهم بدليل قوله: ﴿ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ﴾ أي: من الله تعالى أو من رسول الله ﷺ وقال ابن عباس: إنها في أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء فنزل ذلك فيهم، فقد عم هؤلاء في حكم الآية مع أن المساق لا يقتضيه.

ومثل هذا كثير وهو كله مبني على القول **باعتبار عموم اللفظ لا خصوص السبب.**

ومثله قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، مع أنها نزلت في اليهود والسياق يدل على ذلك ثم إن العلماء عموا بها غير الكفار وقالوا: كفر دون كفر[1].

فإذا رجع هذا البحث إلى القول بأن لا اعتبار بعموم اللفظ وإنما الاعتبار بخصوص السبب وفيه من الخلاف ما علم فقد رجعنا إلى أن أحد القولين هو الأصح ولا فائدة زائدة.

---

(١) في حالة الجور في القضاء أو الجرأة على الاجتهاد وليس في التشريع من دون الله، فإن حالة التشريع من دون الله كفر أكبر وهو مناط الآية.

والجواب: أن السلف الصالح إنما جاءوا بذلك الفقه الحسن بناء على أمر آخر غير راجع إلى الصيغ العمومية **لأنهم فهموا من كلام الله تعالى مقصودًا يفهمه الراسخون في العلم** وهو أن الله تعالى ذكر الكفار بسيئ أعمالهم والمؤمنين بأحسن أعمالهم ليقوم العبد بين هذين المقامين على قدمي الخوف والرجاء فيرى أوصاف أهل الإيمان وما أعد لهم فيجتهد رجاء أن يدركهم، ويخاف أن لا يلحقهم فيفر من ذنوبه، ويرى أوصاف أهل الكفر وما أعد لهم فيخاف من الوقوع فيما وقعوا فيه وفيما يشبهه، ويرجو بإيمانه أن لا يلحق بهم، فهو بين الخوف والرجاء من حيث يشترك مع الفريقين في وصفٍ ما وإن كان مسكوتًا عنه لأنه إذا ذكر الطرفان كان الحائل بينهما مأخوذ الجانبين كمجال الاجتهاد لا فرق، لا من جهة أنهم حملوا ذلك محمل الداخل تحت العموم اللفظي وهو ظاهر في آية الأحقاف وهود والنساء في آية: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾، ويظهر أيضًا في قوله: ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وما سوى ذلك فإما من تلك القاعدة وإما أنها بيان فقه الجزئيات من الكليات العامة لا أن المقصود التخصيص بل بيان جهة العموم وإليك النظر في التفاصيل والله المستعان»[1].

* * *

(١) الموافقات، جـ ٣، ص ٢٨١ - ٢٨٦.

الترغيب بالجنة

معنى الجنة:

الجنة اسم لدار بها كل ألوان النعيم من التنعم بالمخلوقات من مطاعم ومشارب وملبس ومسكن وزوج .. الى أعلى أنواع النعيم من الرضوان والإدخال فى رحمة الله الى رؤية الجبار سبحانه ومحاضرته وكلامه .

وهي الدار التي أعدها الله تعالى خالصة لأوليائه لينعمهم فيها هو تعالى بما شاء لا ليتنعموا فقط بقدر طاقتهم بل لينعمهم ربهم بما يشاء.

وهي دار خالصة لا شوب فيها لكدر ولا مسحة من حزن، ولا ذرة من هَمّ على شيء قادم أو حزن على شيء فاتهم .. فما الذي فات من حاز الجنة؟!.

* * *

وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]، **وبين قوله ﷺ: «لن ينجي أحدًا منكم عملُه»:**

الجنة دار فضل الله يتفضل على أوليائه فيها بما شاء من كرمه وبما لا نتصور ولا تبلغه عقولنا.

ولكن سببها وسبيلها العمل، لكن هذا العمل لا يكون ثمنًا على سبيل العوض عن الجنة فما في الجنة أضعاف أضعاف ما يفعل العبد .. لكن لا سبيل لنيل هذا الفضل إلا بالعمل وهذا ما أثبتته النصوص في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وغيرها كثير من النصوص التي تربط دخول الجنة بأعمال المكلفين.

وكونه ليس عوضًا عن الجنة على سبيل المقابلة هو ما أثبته الحديث، قال الإمام البخاري: حدثنا آدم حدثنا ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لن ينجي أحدًا منكم عمله». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا»[1].

وهذا هو الجمع بين النصين فالمثبَت باء السببية، والمنفي هو باء العِوَض والمقابلة.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله: «فإن أردتم به أنه لا يثيبهم على أعمالهم بالجنة ونعيمها ويجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فهو باطل، والقرآن أعظم شاهد ببطلانه قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا

---

(١) صحيح البخاري، جـ ٥، ص ٢٣٧٣.

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

وهذا في القرآن كثير يبين أن الجنة ثوابهم وجزاؤهم، فكيف يقال لا تكون نعمه ثوابًا على الإطلاق بل لا تكون نعمه تعالى في مقابلة الأعمال والأعمال ثمنًا لها فإنه لن يُدخل أحدًا الجنة عملُه ولا يدخلها أحد إلا بمجرد فضل الله ورحمته وهذا لا ينافي ما تقدم من النصوص **فإنها إنما تدل على أن الأعمال أسباب لا أعواض وأثمان، والذي نفاه النبي ﷺ في الدخول بالعمل هو نفي استحقاق العوض ببذل عوضه، فالمثبت باء السببية والمنفي باء المعاوضة والمقابلة، وهذا فصل الخطاب في هذه المسألة..**

والقدرية الجبرية تنفي باء السببية جملة وتنكر أن تكون الأعمال سببًا في النجاة ودخول الجنة، وتلك النصوص وأضعافها تبطل قولهم، والقدرية النفاة تثبت باء المعاوضة والمقابلة وتزعم أن الجنة عوض الأعمال وأنها ثمن لها وأن دخولها إنما هو بمحض الأعمال، والنصوص النافية لذلك تبطل قولهم، والعقل والفطر تبطل قول الطائفتين، ولا يصح في النصوص والعقول إلا ما ذكرناه من التفصيل»[1].

* * *

والجنة هي دار رحمة الله .. حتى أن ربنا لما عبر في بعض المواطن عن دخول أوليائه الجنة ذكر اسم الرحمة بدلاً من الجنة: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ﴾ [الجاثية: ٣٠].

ففي مقابل دار الغم كانت هذه دار الرحمة.

وفي مقابل دار الشقاء فهذه دار السعادة: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨].

* * *

وهي دار لا يعقبها فناء[2] ولا موت ولا نغص ولا مرض ولا فراق ولا كدر .. ليس فيها خلاف للنفوس ولا إزعاج الخصام: ﴿ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

* * *

الأمن فيها شعار ..

أمن النفوس عن كل ما يزعجها ويقلقها: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ [الدخان: ٥١]، فهو أمن المقام عن الرحيل أو الفراق أو الموت أو المرض أو ..

وأمن الرزق: ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥]، فهذه تمام النعمة كما امتن في الدنيا على قريش بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش: ٤]، وكما امتن تعالى على القرية التي: ﴿ كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾، فلما بدلوا قال تعالى: ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

* * *

---

(١) مفتاح دار السعادة، جـ ٢، ص ٩٢.

(٢) بخلاف المبتدعة من المعتزلة كأبي الهذيل العلاف وضلال الجهمية.

وهي دار الجمع والائتلاف بين الأحباب: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٧ - ٦٨]، الآيات.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٢١]، وما ألتناهم يعني: وما نقصناهم. والمعنى أنه قد ألحقت الذرية بالآباء ورفعوا إلى درجتهم ولم ينقص الآباء من درجاتهم ليجتمعوا بأبنائهم وهذا من عظم فضل رب العالمين.

* * *

وهي دار لكل نعيم بالمخلوقات من مطعم ومشرب وملبس ومسكن .. هكذا بإطلاق: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١].

وللتنعم برؤية الخالق وكلامه ومحاضرته تعالى.

* * *

ولشوق نفوسنا لمعرفة المآلات و(ما لنا إن فعلنا ذلك) كما قالت الأنصار لرسول الله ﷺ عند بيعة العقبة الثانية التي بايعوه فيها على الجهاد وما يستلزمه من ضياع الأموال ونهكة النفوس وأن ترميهم العرب عن قوس واحدة فعند البيعة سألوا رسول الله ﷺ سؤال البشر جميعًا قالوا: يا رسول الله ما لنا إن فعلنا ذلك؟ فقال: «الجنة». فقالوا: ربح البيع ولا نقيلها ولا نستقيلها. يعني لا نقبل الإقالة من البيعة ـ يعني نقضها ـ ولا نطلب ذلك.

فللإجابة على هذا السؤال الفطري كان القرآن يفصل في بعض المواضع لنعيم الجنة كهذه المواضع الأربع على سبيل المثال لا الحصر:

- **الموضع الأول: آيات سورة الرحمن:**

قال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، والأفنان: الأغصان أو الألوان أو كلاهما، فأنواع الفواكه بألوان مختلفة كما رجح الحافظ ابن كثير.

وقال تعالى: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٩-٥٢]، هكذا بإطلاق.

وقال تعالى: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٣-٥٥].

والناس لا تهتم ببطائن الفرش وهو ما يلي منها الأرض ولكن تهتم بالظهارة أي ما بدا منها للرائي، ولكن ربنا سبحانه وصف لنا الجنة في أكثر من موطن بقاعدة التنبيه بالأدنى على الأعلى، كأنه تعالى يقول لنا هذه البطانة التي لا تلتفتون إليها ولا تهتمون كثيرًا بشأنها فما ظنكم بالظهارة؟ ولذا لم يخبرنا تعالى ما هي الظهارة ولم يصفها لنا بل تركها لنعرف عظم قدرها من خلال معرفتنا أن ما هو أقل منها شأنًا أنه من الحرير، ولذا قال السدي: أن الظهارة من نور جامد[1].

---

(١) راجع ابن كثير.

وهذه القاعدة مكررة كقوله تعالى بعدما يصف الجنة يقول تعالى في أكثر من موطن أن كل ما وصف إنما هو ﴿ نُزُلًا ﴾، والنزل هو أول ما يعد للضيف، فكل ما فُصّل هو مجرد البداية على وجه سرعة الضيافة التي نعرفها في الدنيا أما الضيافة نفسها فهو ما لا يوصف ولا يخطر على البال يقول الإمام البيضاوي: «﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾، حال من ﴿ مَا تَدَّعُونَ ﴾، للإشعار بأن ما يتمنون بالنسبة إلى ما يعطون مما لا يخطر ببالهم كالنزل للضيف»[1].

ثم نكمل الآيات:

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [الرحمن: ٥٦].

وقاصرة الطرف هي قاصرة عينها على زوجها وهذا أيضًا من التنبيه بالأدنى على الأعلى وتنبيه بمعنى على معان أخرى تستلزمه، فقصرها طرفها على زوجها هو متعة في ذاته للرجل، ولا يكون هذا الوصف إلا إذا كانت ممتلئة بحب زوجها وتبجيله وأنه غاية ما تتمنى ومعان كثيرة مستلزمة لهذا الوصف يتملاه أحدنا كما يشاء ..

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٨].

وهذا الوصف الرائع لبياضها وصفائها كما يقول المفسرون، روعته ليست في مجرد جمال التشبيه فقط بل في أنه ليس صادرًا من مخلوق قد ينفعل انفعالاً مبالغًا فيه بل هو وصف حقيقي وصادق من رب العالمين الخالق البديع سبحانه .

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٩-٦٠].

وانظر إلى كيف يكون إحسان رب العالمين فإن كان سبحانه ينادي على المعرض، يناديه من القريب، ويتلقى المقبل، يتلقاه من البعيد، ويقول - كما ورد فى الأثر الالهى: «لو يعلم المعرضون عني مدى شوقي إليهم لتقطعت أوصالهم حبًا لي وشوقًا إليّ، فإن كان هذا شأني بالمعرضين عني فكيف يكون شأني بالمقبلين عليّ»، فانظر إلى ربك لما يحسن إليك في دار هذا شعارها!!.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن: ٦١-٧٠].

والخيرات[2]: خيرات الأخلاق، والحسان: حسان الوجوه، وصفًا من رب العالمين.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ [الرحمن: ٧١-٧٢].

والخيمة هي: لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يرون الآخرين كما ورد في الصحيح عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون،

---

(١) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ١١٥.

(٢) قرىء بسكون الياء(خيْرات) وقرىء بتشديدها (خيّرات).

وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من كذا آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه في جنة عدن»[١].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٣-٧٦].

والرفرف: الأبسطة وكأنها من صنع (عبقر) لتقريب وصفها إلى العرب، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادي الجن: عبقر![٢].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٧-٧٨].

وختمت السورة بوصفين جامعين عليهما تدور الأسماء الحسنى:

﴿ ٱلْجَلَـٰلِ ﴾: وعليه تدور صفات العظمة والبهاء والعز والسلطان، وما تقتضيه من الخوف والتعظيم والمهابة والذل لرب العالمين.

و﴿ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾: وعليه تدور صفات الكرم والرحمة والإحسان والبر، وما تقتضيه من غاية الحب والرجاء والشوق لرب العالمين.

فتبارك من هذا كلامه وهذا وصفه وهذه جنته.

* * *

- **الموضع الثاني: آيات سورة الواقعة:**

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠-١١].

والقرب جزاء فوق كل جزاء .. وانظر أي حياة تلك التي يحياها امرؤ ما بالقرب من رب العالمين .. في المكان والرضوان .. أي نفَس يتنفسه المرء .. ما جو هذه الحياة .. وكيف تمر اللحظات .. وما هو شعور الإنسان الذي يغمره ..كل هذا متروك للتأمل تحت هذه الكلمة: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾.

﴿ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ [الواقعة: ١٢-١٥].

والموضونة: المشبكة بالذهب ومزينة به أو منسوجة من خيوطه.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الواقعة: ١٦].

فمع النعيم بالدخول هناك الألفة والصحبة، وتقابل الوجوه معه تقابل القلوب فلا تنغيص الخلاف ولا الضغائن، وليس هناك وحدة بل الصحبة والأنس بل وروح الفكاهة والدعابة من غير لغو ولا إثم كما قال تعالى: ﴿ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور: ٢٣]، والتنازع هنا تنازع محبب وجميل فهو المزحة اللطيفة والدعابة المرحة بلا كلام لا فائدة فيه ولا إثم.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧].

---

(١) صحيح البخاري، جـ ٤، ص ١٨٤٩.
(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن.

ويوصف الولدان في بعض المواضع في القرآن بأنهم كاللؤلؤ المنثور.

وهذا هو الخادم فكيف بالمخدوم ..؟.

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٨-١٩].

والكأس يشرب فيها خمر الجنة التي تجرى من عين سهلة التناول منها ﴿ مِّن مَّعِينٍ ﴾ يعني: تدركها العين وتراها فياضة ظاهرة، يقول ابن كثير: «والجميع من خمر من عين جارية معين ليس من أوعية تنقطع وتفرغ بل من عيون سارحة، وقوله تعالى: ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أي: لا تصدع رؤوسهم ولا تنزف عقولهم بل هي ثابتة مع الشدة المطربة واللذة الحاصلة»[١].

ويقول فى موضع آخر: «نزه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن وهو الغول وذهابها بالعقل جملة فقال تعالى ههنا: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ أي: بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها، قال مالك عن زيد بن أسلم: خمر جارية بيضاء أي: لونها مشرق حسن بهي، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدُورة إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم، وقوله عز وجل: ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴾ أي: طعمها طيب كلونها وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك».

ويقول: «وقال الضحاك عن ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السُكْر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال[٢].

﴿ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١].

قال الإمام أحمد: حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان الضبعي حدثنا ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة»، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة، فقال: «آكلها أنعم منها ـ قالها ثلاثًا ـ وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها»[٣].

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣].

فمع الجمال والصفاء والبياض هناك الصون وهو جمال له وقع خاص في النفس.

﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الواقعة: ٢٤].

بيان أن الطريق مفتوح للجميع، وليست هناك محاباة.

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥].

وهذا الجو الرائع وحده نعيم.

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٣٦٣.

(٢) المصدر السابق، جـ ٤، ص ١٠.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ،جـ ٣، صـ ٢٢١ ، رقم ١٣٣٣٥.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٧-٢٨].

أي: خضد شوكه فلا آفة في الجنة، حتى ما بداخل فاكهة الدنيا مما يؤذى ليس هناك.

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٩].

وهو ثمر معروف بالبادية أو هو الموز لكن الأول هو الراجح، ومن قال من السلف أنه الموز فإنما قاله على وجه التشبيه في تراكم الثمر وكثرته، وهذا ما قاله ابن القيم.

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠].

برغم أنه لا شمس هناك، فهو ظل الأشجار، ولتعلم أن الحياة هناك لا تخطر لك على بال.

﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ [الواقعة: ٣١-٣٤].

مرفوعة في المكان والمكانة والطهارة والنظافة.

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٦].

وانظر إلى تعلق البكر بزوجها وحبها له وأنه أول لامس وأنه أول ما تعلق به قلبها وانظر إلى البكر في انفعالاتها، ولذا قال: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ [الواقعة: ٣٧]، وهي المتحببة إلى زوجها، يقول ابن القيم: «وذكر المفسرون في تفسير العُرُب: إنهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات المتعشقات الغلمات المغنوجات، كل ذلك من ألفاظهم، وقال البخاري في صحيحه عربًا: مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر وتسميها أهل مكة العربة وأهل المدينة الغنجة وأهل العراق الشكلة والعرب والمتحببات إلى أزواجهن هكذا ذكره في كتاب "بدء الخلق" وقال في كتاب "التفسير" في سورة الواقعة عربًا: مثقلة واحدها عروب مثل صبور وصبر تسميها أهل مكة العربة، وأهل المدينة الغنجة، وأهل العراق الشكلة، قلت فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها وهذا غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن»[1].

﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الواقعة: ٣٨ - ٤٠].

* * *

- **الموضع الثالث آيات سورة الإنسان:**

﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان: ١١].

والسرور يكون في القلب، والنضرة في الوجه من أثر سرور القلب ومن النعيم الذي يغمرهم.

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٢].

لم يذكر على أي شيء صبروا فعلم أن الصبر هنا هو القوة العملية كلها كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]، فاليقين هو قوتهم العلمية وبصيرتهم، والصبر هو قوتهم العملية من القيام بالتكاليف الشرعية فعلاً وتركًا، قلبًا وقالبًا ولسانًا، وصبرًا على الأذى اللاحق بالمؤمنين في الدنيا.

---

(١) حادي الأرواح، جـ ١، ص ١٥٦.

﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٣].

والاتكاء جلسة الملوك المتنعمين، والجنة لا حر ولا قُر (يعني: البرد) فهي معتدلة المزاج.

﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان: ١٤].

وهذا من ترف أهل الجنة.

﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥-١٦].

والقوارير هي: الزجاج لكن ينص السياق أن البللور ليس على ظاهره أنه بللور لكنه من فضة لكن لشدة صفائها فهي شفافة كالبللور ..

يقول الحافظ ابن كثير: «قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغير واحد: بياض الفضة في صفاء الزجاج، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا، قال ابن المبارك عن إسماعيل عن رجل عن ابن عباس: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم في الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة. رواه ابن أبي حاتم»[1].

والتقدير معناه أنها على قدر يد الشارب، وما فيها على قدر حاجته ..

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٧-٢٠].

فأهل الجنة كلهم ملوك.

وانظر إلى مُلْك يسميه من سمى الدنيا قليلة يسميه ملكًا كبيرًا ..كيف يكون..؟.

﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١].

فالثياب والأساور لحلية الظاهر، والشراب الطهور لحلية الباطن.

﴿ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان: ٢٢].

والشاكر هو رب العالمين فكيف يشكر وكيف يجزي ..؟.

وقد روى أن بعض الصحابة سمعها فشهق فمات .. يقول الحافظ ابن كثير:

«وقوله جل وعلا: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ﴾ أي: وإذا رأيت يا محمد ﴿ ثَمَّ ﴾ أي: هناك يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ﴿ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ أي: مملكة لله هناك عظيمة وسلطانًا باهرًا. وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها: إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، وقد قدمنا في الحديث المروي من طريق ثوير بن أبي فاختة عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألف

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٥٨٦.

سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه»، فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون في الجنة فما ظنك بما هو أعلى منزلة وأحظى عنده تعالى؟ .

وقد روى الطبراني ههنا حديثًا غريبًا جدًا فقال: حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا محمد بن عمار الموصلي حدثنا عقبة بن سالم عن أيوب بن عتبة عن عطاء عن ابن عمر قال: «جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «سل واستفهم». فقال: يا رسول الله فضلتم علينا بالصور والألوان والنبوة أفرأيتَ إن آمنتُ بما آمنتَ به وعملتُ بما عملتَ به إني لكائن معك في الجنة؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام». ثم قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله، ومن قال سبحان الله وبحمده كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة».

فقال رجل: كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة أو نعم الله فتكاد تستنفد ذلك كله إلا أن يتغمده الله برحمته»، ونزلت هذه السورة ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾، فقال الحبشي: وإن عيني لترى ما ترى عيناك في الجنة قال: «نعم». فاستبكى حتى فاضت نفسه». قال ابن عمر: ولقد رأيت رسول الله ﷺ يدليه في حفرته بيده»[1].

* * *

- **الموضع الرابع آيات سورة الزخرف:**

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨].

والنداء باسم العبودية هنا للتشريف بأنهم أخلصوا لله حقه، وأوغلوا في عبوديته حتى صارت لهم شعارًا، فقد خرجوا عن حظ نفوسهم قيامًا بحق ربهم، والله تعالى قد ذكر هذا الاسم للمقربين من عباده؛ ففي سورة الإنسان قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٥ - ٦]، وكل المفسرين: ابن عباس وغيره على أن الأبرار أصحاب اليمين يمزج لهم شرابهم بالكافور بينما المقربون يشربونها صرفًا خالصة بلا مزج، وعبر عن المقربين بقوله: ﴿ عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾.

والكل عباد الله والكل موحدون لكن هؤلاء أوغلوا في العبودية وخرجوا من حظوظهم لحق ربهم فقاموا بالتوحيد وترك الشرك بل قاموا بكمالات التوحيد فخرج من قلوبهم كل حب إلا لله ولأجله وفيه، وخرجوا عن كل خوف إلا من ربهم فخرج من قلوبهم كل خوف، وخرجوا من طاعة كل أحد حتى من طاعة النفوس والأهواء وما تقتضيه لطاعة ربهم وحده، ومن رجاء كل أحد أو الاستعانة أو السؤال أو أي تعلق بمخلوق إلى ربهم وحده وقاموا بالفرائض والنوافل وتركوا المحرمات والمشتبهات وتورعوا عنها وسارعوا في الخيرات .. فهؤلاء ينادون بـ ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٩-٧١].

---

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٥٨٦.

والصحاف: هي التي يؤكل فيها وهي من ذهب ولم يذكر تعالى ماذا فيها تنبيهًا بالأدنى على الأعلى، كما سبقت الإشارة إلى هذا، يعني هذه هي الصحاف التي يؤكل فيها والاهتمام بها ليس كالاهتمام بالطعام نفسه، وهي من ذهب، فما بالكم بما فيها؟.

وانظر إلى هذا الإطلاق لما تشتهيه الأنفس وإلى ما تلذ به الأعين لا مجرد ما ترتاح إليه بل (تلذ) ولم يذكر تعالى تفصيلاً لشيء من هذا تاركًا لنا محاولة التفكير العميق والذي لا ينتهي بل والذي سينتهي قطعًا دون الوصول لما هناك: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة: ١٧]، «ولا خطر على قلب بشر».

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢ - ٧٣].

ويؤكد تعالى على أن السبيل هو العمل وبلا محاباة وأن الطريق مفتوح.

* * *

ويطلق فيها للمؤمن أمانيه حتى تنقطع به الأماني: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥]، ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ [الفرقان: ١٦].

حتى أنه ليُذَكّر ليتمنى فيقول له ربه: تمن كذا تمن كذا ..ورد في صحيح البخاري في حديث أبي هريرة: «.. ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار، فكل ابن أدم تأكله النار إلا أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل.

ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولاً الجنة مقبل بوجهه قِبَل النار. فيقول: يا رب اصرف وجهي عن النار قد قشبني ريحها (أي: سمني وأهلكني) وأحرقني ذكاؤها (أي: لهيبها وشدة اشتعالها ووهجها) فيقول: «هل عسيت إن فُعِل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟». فيقول: لا وعزتك. فيعطي اللهَ ما يشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم قال: يا رب قدمني عند باب الجنة. فيقول الله له: «أليس قد أعطيت العهود والميثاق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت؟». فيقول يا رب لا أكون أشقى خلقك. فيقول «فما عسيت إن أُعطيت ذلك أن لا تسأل غيره؟». فيقول: لا وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق .

فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت. فيقول: يا رب أدخلني الجنة. فيقول الله: «ويحك يا ابن آدم ما أغدرك أليس قد أعطيت العهد والميثاق أن لا تسأل غير الذي أعطيت؟». فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك فيضحك الله عز وجل منه ثم يأذن له في دخول الجنة فيقول: تمن فيتمنى حتى إذا انقطعت أمنيته قال الله عز وجل: من كذا وكذا (أي: اذكر هذه الأماني التي كانت في نفسك) أقبل يذكِّره ربه (الأماني التي غابت عنه) حتى إذا انتهت به الأماني قال الله تعالى: «لك ذلك ومثله معه»، قال أبو سعيد الخدري لأبي هريرة رضي الله عنهما إن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: لك ذلك وعشرة أمثاله». قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ﷺ إلا قوله: «لك ذلك ومثله معه». قال أبو سعيد إني سمعته يقول: «ذلك لك وعشرة أمثاله»[1].

---

(١) صحيح البخاري، جـ ١، ص ٢٧٧. وأخرجه مسلم في الإيمان باب معرفة طريق الرؤية رقم ١٨٢.

حتى لتتقاصر معظم الأماني أمام ما عند الله: «.. فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته»، فيسألونه حتى أن أقصرهم أمنية ليقول: ربي تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها رب فآتني مثل كل شيء كانوا فيها من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا فيقول الله تعالى: «لقد قصرت بك أمنيتك ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي لأنه ليس في عطائي نكد ولا قصر يد»، قال: ثم يقول: «اعرضوا على عبادي ما لم يبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال»، قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم[1]».

* * *

فإذا أطلقت الأماني وانقطعت .. كان هناك ما لا يعلمون مما هو فوق أمانيهم ولا يشتهونه لأنهم لا يعلمونه: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

روى البخاري: حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾»[2].

ولهذا ذكر سبحانه عن كل ما وصفه في الجنة بأن كل ما ذُكر إنما هو «نُزُل»فما معنى النزل؟.

يقول البيضاوي: «﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾، شجرة ثمرها نزل أهل النار وانتصاب ﴿نُّزُلًا ﴾ على التمييز أو الحال وفي ذكره دلالة على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقام للنازل ولهم وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام»[3].

فالنزل هو أول ما يُعد للضيف على وجه السرعة الى حين إكرامه بما هو أعلى ، ويقصد بالنازل الضيف، يعنى هذا ما يقدم على وجه السرعة للضيافة ، ثم هناك وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

* * *

ففي الجنة ما لا نشتهيه الآن لأننا لا نعلمه.

يقول شيخ الإسلام: «بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه؛ فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور، فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده، فالجنة فيها هذا وهذا كما قال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، وقال: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾، ففيها ما يشتهون وفيها مزيد على ذلك وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه كما قال: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، وهذا باب واسع»[4].

* * *

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٢، ص ٦٧٣.
(٢) صحيح البخاري، جـ ٣، ص ١١٨٥.
(٣) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ١٤.
(٤) مجموع الفتاوى، جـ ١٠، ص ٧٠٣ - ٧٠٤.

والمزيد أمر دائم لأهل الجنة كما قال السلف.

روى مسلم في صحيحه حدثنا أبو عثمان سعيد بن عبد الجبار البصري حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنًا وجمالاً فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً»(١).

وروى الإمام أحمد حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عفان ثنا حماد بن سلمة قال أخبرنا ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إن لأهل الجنة سوقًا يأتونها كل جمعة فيها كثبان المسك فإذا خرجوا إليها هبت الريح»، قال حماد: أحسبه قال شمالي. قال: «فتملأ وجوههم وثيابهم وبيوتهم مسكًا فيزدادون حسنًا وجمالاً»، قال: «فيأتون أهليهم فيقولون: لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً ويقولون لهن: وأنتم قد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالاً»(٢).

يقول البيضاوي: «﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، وهو ما لا يخطر ببالهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(٣).

ويقول القرطبي:«قوله تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ﴾ يعني: ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم، ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، من النعم مما لم يخطر على بالهم»(٤).

ويقول الألوسي: ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾، هو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرج تحت مشيئتهم من معالي الكرامات التي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ومنه كما أخرجه ابن أبي حاتم عن كثير بن مرة أنه تمر السحابة بهم فتقول: ماذا تريدون فأمطره عليكم فلا يريدون شيئًا إلا أمطرته عليهم أمثالها»(٥).

يقول أبو هريرة: «والذي أنزل الكتاب على محمد ﷺ إن أهل الجنة ليزدادون جمالاً وحسنًا كما يزدادون في الدنيا قباحةً وهرمًا»(٦).

* * *

وفي الجنة جانب عظيم من النعيم وهو من أعظمها وقد لا يدركه الكثير وهو نعيم للروح ذاتها وذلك بلزوم الذكر .. فالجنة ليست دار تكليف بل دار جزاء، وأهل الجنة يلهمون التسبيح كما نُلهم في الدنيا النَفَس كما ورد الحديث بذلك .. فالأمر ليس على وجه التكليف ولكن على وجه النعيم بل أعلاه.

---

(١) صحيح مسلم، جـ ٤، ص ٢١٧٨.
(إن في الجنة لسوقًا) المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق.
(يأتونها كل جمعة) أي: في مقدار كل جمعة أي أسبوع وليس هناك حقيقة أسبوع لفقد الشمس والليل والنهار والسوق يذكر ويؤنث وهو أفصح.
(الشمال) هي التي تأتي من دبر القبلة قال القاضي وخص ريح الجنة بالشمال لأنها ريح المطر عند العرب كانت تهب من جهة الشام وبها يأتي سحاب المطر وكانوا يرجون السحاب الشامية.
(٢) مسند أحمد بن حنبل، جـ ٣، ص ٢٨٤، تعليق شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٢٣١.
(٤) تفسير القرطبي، جـ ١٧، ص ٢٢.
(٥) روح المعاني، جـ ٢٦، ص ١٩٠.
(٦) مصنف ابن أبي شيبة، جـ ٧، ص ٣٥، رقم ٣٤٠٠٥.

وذلك أن العبادة في الدنيا لها جانبان: جانب التكليف وجانب التلذذ والتنعم بالذكر الذي من ذاقه استوحش من مذاق جميع شهوات الدنيا ولذاتها وتضاءلت عنده وهو نعيم لروح العبد يعجز عن وصفه، وهذا ليس مبالغة بل هذا الكلام لا يبلغ وصف شيء من هذه اللذة، لكن الشأن في ذوقها، وكما يقول ابن القيم: إن من لم يذق هذه اللذة وتوصف له قد لا يقدرها فمثله كمثل الصبي الصغير الذي توصف له لذة وشهوة لا يجدها في نفسه كما لو وصفت له شهوة النساء ولذة إتيانهن وهو عاجز عن تصورها فالشأن كما قلنا إنما هو في ذوقها[1].

وهو الجانب الذي عبرت عنه كلمات لبعض السلف من العُبّاد كما قال بعضهم:

مساكين الملوك وأبناء الملوك..! لو علموا ما نحن فيه من نعيم لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال بعضهم: إنه ليمر على القلب لحظات من النعيم حتى أقول لو كان هذا نعيم أهل الجنة لكان طيبًا، وقال آخر: أنه لتمر على القلب لحظات يكاد يرقص فيها طربًا.

فإذا كانت الآخرة وسقط جانب التكليف بقي جانب التنعم والتلذذ لأرواح أهل الجنة.

هذا الجانب من النعيم الذي لا يوصف ولا يُقدر عليه في الدنيا هو ما تكتسبه الروح من تنعمها وتلذذها في تعبدها لرب العالمين، يقول البيضاوي: «﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، كأنه لما سبق، وتحقيقه أن النفوس تكتسب بالعقائد والأعمال هيئات توجب لذاتها وألمها لكنها لا تشعر بها في الدنيا لعوائق تشغلها فإذا قامت قيامتها زالت العوائق وأدركت لذاتها وألمها»[2].

وهذا الجانب؛ بأعلى ما يكون، وأصفى ما يكون، وعلى سبيل الجزاء .. هناك في هذه الدار التي لا يتخلف عنها شيء من النعيم.

* * *

وهي دار لما هو لأعلى من كل ما سبق، وهو حلول الرضوان على الدار وأهلها فهم يتنفسون ويحيون في هذا الحال العظيم .. وهو أعظم النعم.

يقول البيضاوى فى تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

يقول رحمه الله: «.. وقد نبه بهذه الآية على نِعَمِه؛ فأدناها متاع الحياة الدنيا، وأعلاها رضوان الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ﴾، وأوسطها الجنة ونعيمها».

* * *

ثم أعظم من كل ما سبق رؤية الجبار الخالق الكريم .. ومحاضرته .. وكلامه .. وعندها ينقطع القلم وينقطع اللسان عن كل وصف وعن كل كلمة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقد قال بعض السلف: أن لذة الجنة كلها كقطرة في بحر إلى جنب لذة النظر إلى وجه الله تعالى.

وهو يوم احتفال ضخم وموكب هائل في الجنة.

---

(١) راجع مدارج السالكين.

(٢) تفسير البيضاوي، جـ ١، ص ٨٨.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: تراه عيانًا كما رواه البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ في صحيحه: «إنكم سترون ربكم عيانًا»، وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها لحديث أبي سعيد وأبي هريرة وهما في الصحيحين أنا ناسًا قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟»، قالوا: لا قال: «فإنكم ترون ربكم كذلك».

وفي الصحيحين عن جرير قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر! فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا»، وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

وفي أفراد مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة. قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا! ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار! قال: فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهي الزيادة. ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه: «إن الله يتجلى للمؤمنين يضحك» يعني: في عرصات القيامة.

ففي هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم عز وجل في العرصات وفي روضات الجنات وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا عبد الملك بن أبحر حدثنا ثوير بن أبي فاخته عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لينظر في وجه الله كل يوم مرتين». ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن شبابة عن إسرائيل عن ثوير قال: سمعت ابن عمر فذكره قال: ورواه عبد الملك بن أبحر عن نوير عن مجاهد عن ابن عمر وكذلك رواه الثوري عن نوير عن مجاهد عن ابن عمر ولم يرفعه.

ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ولكن ذكرنا ذلك مفرقًا في مواضع من هذا التفسير وبالله التوفيق.

وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام»[1].

انظر كيف يحيا بعض الناس في دار بينهم وبين رؤية وجه ربهم رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن.

أي شعور .. أي حياة .. أي نفس .. أي وصف ؟! **سبحانك**.

* * *

(١) تفسير ابن كثير، جـ ٤، ص ٥٧٧.

قِصَرُ فَهْم من قَصَر نعيم الجنة على التنعم بما فيها من مخلوقات ولم يدخل فيها أعظم النعيم وهو رؤية وجه الله تعالى ، وجعل سؤاله رؤية الله تعالى غير طلبه الجنة:

ولهذا عاب شيخ الإسلام وابن القيم على من سمع من يقرأ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، فقال فأين من يريد الله؟ فقال شيخ الإسلام: هذا مقصر في معرفة الجنة، فإنها ليست دارًا للنعيم بما خلق فيها من مسكن وملبس ومنكح ومسموع يلتذ بسماعه كالأصوات الحسنة والغناء الحسن فقط .. بل كذلك هي الدار التي ينعم فيها برؤية الخالق والنظر إليه .. ومحاضرته.

ولا سبيل إليه إلا في هذه الدار ولا يرى إلا في هذه الدار .. الجنة ..

يقول شيخ الإسلام:

«والضرب الثاني: طوائف من المتصوفة والمفتقرة والمتبتلة وافقوا هؤلاء على أن المحبة ليست إلا هذه الأمور التي يتنعم بها المخلوق، ولكن وافقوا السلف والأئمة على إثبات رؤية الله والتنعم بالنظر إليه، وأصابوا في ذلك وجعلوا يطلبون هذا النعيم وتسمو إليه همتهم ويخافون فوته، وصار أحدهم يقول: ما عبدتك شوقًا إلى جنتك أو خوف من نارك ولكن لأنظر إليك وإجلالاً لك. وأمثال هذه الكلمات مقصودهم بذلك هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة، وقد يغلطون أيضًا في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة.

وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها فيظن أنه يفعل لغير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه، وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين وأرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح وذوق سليم لكن ليس له عبارة تبين كلامه فيقع في كلامه غلط وسوء أدب مع صحة مقصوده، وإن كان من الناس من يقع منه في مراده واعتقاده.

فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك ولكن أخطؤا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجًا عن الجنة فأسقطوا حرمة اسم الجنة .

ولزم من ذلك أمور منكرة نظير ما ذكر عن الشبلي ـ رحمه الله ـ أنه سمع قارئًا يقرأ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾، فصرخ وقال: أين مريد الله.

فيحمد منه كونه أراد الله ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله.

وهذه الآية في أصحاب النبي الذين كانوا معه بأحد وهم أفضل الخلق فإن لم يريدوا الله أفيريد الله من هو دونهم كالشبلي وأمثاله.

ومثل ذلك ما أعرفه عن بعض المشائخ أنه سأل مرة عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾، قال: فإذا كانت الأنفس والأموال في ثمن الجنة فالرؤية بم تنال؟ فأجابه مجيب بما يشبه هذا السؤال.

والواجب أن يعلم أن كل ما أعده الله للأولياء من نعيم بالنظر إليه وما سوى ذلك هو في الجنة كما أن كل ما وعد به أعداءه هو في النار.

وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وفي الحديث الصحيح عن النبي يقول الله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بل له ما أطلعتهم عليه». وإذا علم أن جميع ذلك في الجنة فالناس في الجنة على درجات متفاوتة كما قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾، وكل مطلوب للعبد بعبادة أو دعاء أو غير ذلك من مطالب الآخرة هو في الجنة.

وطلب الجنة والاستعاذة من النار طريق أنبياء الله ورسله وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين كما في السنن أن النبي سأل بعض أصحابه: «كيف تقول في دعائك». قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ. فقال ﷺ: «حولها ندندن».

فقد أخبر أنه هو ومعاذ ـ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ـ إنما يدندنون حول الجنة أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ومعاذ ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟ ولو طلب هذا العبد ما طلب كان في الجنة.

وأهل الجنة نوعان: سابقون مقربون، وأبرار أصحاب يمين؛ قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، قال ابن عباس: تمزج لأصحاب اليمين مزجًا ويشربها المقربون صرفًا.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد؛ فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة». فقد أخبر أن الوسيلة التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله ورجاء أن يكون هو ذلك العبد هي درجة في الجنة فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلى منها يكون خارجًا عن الجنة يصلح للمخلوقين.

وثبت في الصحيح أيضًا في حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس في مجالس الذكر قال: «فيقولون للرب تبارك وتعالى وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبرونك. قال: فيقول: وما يطلبون. قالوا: يطلبون الجنة. قال: فيقول: وهل رأوها. قال: فيقولون: لا. قال: فيقول: فكيف لو رأوها. قال: فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد لها طلبًا. قال: ومم يستعيذون. قالوا: يستعيذون من النار. قال: فيقول: وهل رأوها. قال: فيقولون: لا. قال: فيقول: فكيف لو رأوها. قالوا: لو رأوها لكانوا أشد منها استعاذة. قال: فيقول: أشهدكم أني أعطيتهم ما يطلبون وأعذتهم مما يستعيذون أو كما قال. قال: فيقولون فيهم

فلان الخطّاء جاء لحاجة فجلس معهم. قال: فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم». فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله كان مطلوبهم الجنة ومهربهم من النار.

والنبي لما بايع الأنصار ليلة العقبة وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشائخ كلهم قالوا للنبي: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك. قال: «أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم وأشترط لأصحابي أن تواسوهم». قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا. قال: «لكم الجنة»، قالوا: مُد يدك فوالله لا نقيلك ولا نستقيلك، وقد قالوا له في أثناء البيعة إن بيننا وبين القوم حبالاً وعهودًا وإنا ناقضوها.

فهؤلاء الذين بايعوه من أعظم خلق الله محبةً لله ورسوله وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله على وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة فلو كان هناك مطلوب أعلى من ذلك لطلبوه ولكن علموا أن في الجنة كل محبوب ومطلوب.

بل وفي الجنة ما لا تشعر به النفوس لتطلبه فإن الطلب والحب والإرادة فرع عن الشعور والإحساس والتصور فما لا يتصوره الإنسان ولا يحسه ولا يشعر به يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده فالجنة فيها هذا وهذا كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، وقال فيها: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾، ففيها ما يشتهون وفيها مزيد على ذلك وهو ما لم يبلغه علمهم ليشتهوه كما قال: ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا باب واسع.

فإذا عرفت هذه المقدمة فقول القائل: الرضا أن لا تسأل الله الجنة ولا تستعيذه من النار. إن أراد بذلك أن لا تسأل الله ما هو داخل في مسمى الجنة الشرعية فلا تسأله النظر إليه ولا غير ذلك مما هو مطلوب جميع الأنبياء والأولياء وإنك لا تستعيذ به من احتجابه عنك ولا من تعذيبك في النار فهذا الكلام مع كونه مخالفًا لجميع الأنبياء والمرسلين وسائر المؤمنين فهو متناقض في نفسه فاسد في صريح العقول ..

وإن أراد بذلك أن لا يسأل التمتع بالمخلوق بل يسأل ما هو أعلى من ذلك فقد غلط من وجهين:

من جهة أنه لم يجعل ذلك المطلوب من الجنة وهو أعلى نعيم الجنة.

ومن جهة أنه أيضًا أثبت أنه طالب مع كونه راضيًا.

أيضًا فإذا لم يسأل الله الجنة ولم يستعذ به من النار فإما أن يطلب من الله ما هو دون ذلك مما يحتاج إليه من طلب منفعة ودفع مضرة وإما أن لا يطلبه؛ فإن طلب ما هو دون ذلك واستعاذ مما هو دون ذلك فطلبه للجنة أولى واستعاذته من النار أولى» ا.هـ[1].

* * *

يقول ابن القيم: «وكيف يقدر قدرَ دار غرسها الله بيده وجعلها مقرًا لأحبابه وملأها من رحمته وكراماته ورضوانه ووصف نعيمها بالفوز العظيم وملكها بالملك الكبير وأودعها جميع الخير بحذافيره وطهرها من كل عيب وآفة»[2].

* * *

(١) مجموع الفتاوى، جـ ١٠، ص ٦٩٨ - ٧٠٦.
(٢) حادي الأرواح، ص ١٩٢.

بل انظر إلى طريقة الجزاء: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥].

صدق يؤدي إلى التقوى والإحسان فهو تصديق بالقلب واللسان والجوارح حتى تصبح الأعمال تصديقًا بذاتها، وهذا موافق لمن أطلق من أهل السنة اسم التصديق على العمل وأنه غير قاصر على القلب.

والجزاء بأحسن مستوى للأعمال، والتكفير لأسوأ الأعمال فما ظنك بما دونها؟ ..

فانظر إلى عظم الفضل.

ومن أراد التفصيل فليراجع تفسير الآيات وليراجع ما كتبه السلف في هذا كالإمام ابن القيم رحمه الله.

* * *

المقصود الأساس من آيات الترغيب بالجنة

المقصود من الترغيب هو الإجابة على هذا السؤال: ما لنا إن فعلنا ذلك؟

وهو سؤال كبير تحته أسئلة كثيرة بحسب الزمان وبحسب الجِمْل والواجب المطلوب من كل شخص على وجه الخصوص من واجب فردي في خاصة نفسه .. أو ما يجب عليه مع غيره من مجموع الأمة.

إنها الإجابة على أسئلة كثيرة ..

ما لنا إن أقمنا هذا الدين وحكّمناه على نفوسنا؟.

ما لنا إن تركنا من أجل الله تعالى؟ وما لنا إن بذَلْنا من أجله؟.

ما لنا إن كنا غرباء؟.

وما لنا إن حملنا الهدى للناس فقابلونا بالأذى؟.

ما لنا إن التزمنا منهجًا تحاربه الدنيا كلها وينساه أهله بل يتنكرون له؟.

ما لنا إن وصلنا هذه الأمة بأصولها واستغرقنا أعمارنا وأعصابنا وجهدنا من أجل هذا؟.

ما لنا إن تركنا المحرمات والشهوات رغم ضغوطها؟.

ما لنا إن وفّينا حين يخون الآخرون؟ وإن تذكّرنا وقد نسى الكثير؟.

وإن تقدمنا وقد أحجم الآخرون؟.

وإن حملنا حملاً ألقاه قوم في منتصف الطريق أو أبوا أصلاً من حمله؟.

ما لنا إن بذلنا ولم نُذكَر؟ وعملنا ولم نُعرَف؟.

ما لنا إن حملنا معروفًا قد صار عند الناس منكرًا ونهينا عن منكر قد صار عند الناس معروفًا وقد شب علي هذا الصغير وهرم عليه الكبير كما اشتكى عمر بن عبد العزيز في زمنه؟.

ما لنا إن بايعنا صفقة يد واحدة: هاك الدنيا وهات منهج الله تعالى؟.

إنها إجابة الله في هذا الكتاب وإجابة رسوله للأنصار يوم البيعة؛ قالوا: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة». قالوا: ربح البيع.

* * *

ومن أجل هذه الإجابة على هذا السؤال ولتحقيق المقصود الأساسي كان الترغيب والتفصيل في الأوصاف من أجل معايشة هذه الدار أكثر مما نعيش هنا ..

ومعرفة أن هناك بديل وجزاء ضخم عوضًا عن هذه الدار فيسهل على النفس الترك من أجل الله .. والعمل وتحمل الجهد والبذل من أجل الله تعالى ..

ويعلم العبد أن قطرة العرق .. وقطرة الدمع .. وقطرة الدم .. لا تضيع.

وأن الألم ولو بمقدار الشوكة، وأن النصب، وأن المصاب ولو كان صغيرًا كما قال بعض السلف: لو ظن أن ماله في جيب ففجع ووجده في الجيب الآخر في نفس اللحظة لوجد هذا كله.

وليعلم العبد أن المتخلِي عن المشتهَى المحرَم من أجل الله سيجد هناك العوض العظيم.

وليعلم العبد أن هذه الدار ليست للأماني؟.

فليس سبيلها الأماني: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [النساء: ١٢٣].

وهي ليست دار أحلام لأنها ليست خيالاً ولا يعلَّل بها الناس على سبيل أنها شيء محتمل!.

إنها الآن موجودة .. مخلوقة .. تنتظر أهلها .. وقد سبقت إليها أرواح المؤمنين ..

بل سألت ربها أهلها.

فمن يخوض الطريق وينتهج السبيل ..

أيا مشتاقًا لذروة الأماني .. يا من جعل همه فوق كل هَمّ وغايته فوق كل غاية ..

هل لك أن تصبر قليلاً لتنالها؟.

هل لك أن تترك قليلاً من أجل الله .. للظفر بها ..؟.

أتستعظم التعب لله؟.. أتستعظم النصب لله؟.. أتكثر عليك الطاعة والعطاء من أجله؟..

أيثقل عليك ترك شهوة دنيئة فتشتري بها أعظم دار ولتحوز كل ما تشاء ..

هل لك في الوصال؟..

أترغب في الود مع الملك الجبار؟..

إنها مرحلة قليلة تقطعها.

وإنه لصبر ساعة في أثناء سفر ثم بعدها المنزل ..

حتى المنزل ليشتاق لأهله فالجنة تسأل ربها أهلها ..

ورب المنزل يدعوا إليه: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس: ٢٥].

إنها المعايشة .. يقول الأستاذ سيد قطب ـ رحمه الله ـ عن الصحابة أن مزيتهم أنهم كانوا يعيشون في الآخرة بأرواحهم ومشاعرهم أكثر مما يعيشون في الدنيا.

إنها الإجابة على سؤال الأنصار نتأسى بهم: ما لنا إن فعلنا ذلك؟.

قال رسول الله ﷺ: «الجنة»، قالوا: ربح البيع ..

ولما كان بعض الصحابة أسيرًا عند بعض العرب وبينما كان يكلمه غمز الكافر (عامر بن الطفيل) لبعض قومه بقتل الصحابي، فلما وجد الصحابي الحربة نفذت من ظهره إلى صدره فجأة .. صاح ببديهته: فزت ورب الكعبة .. وقد أسلم بعد ذلك أحد من شهد الواقعة تأثرًا بهذه الكلمة عندما بحث عن سببها ومعناها ..

إنها البديل وسلوى الطريق ..

فمن أخذها على وجه الأماني لم يفهم القرآن ..

ومن أخذها بدون سبيلها ومأخذها وطريقة الوصول إليها من الإيمان والتوحيد والعمل الصالح .. لم يفهم القرآن ..

ومن قرأ عنها ثم لم يعمل من أجلها .. ولم يترك من أجلها .. ولم يجتهد من أجلها .. ولم يغير حياته من أجلها .. لم يفهم القرآن، ولم يفهم ما الجنة؟، ولا أدري ماذا فهم !!.

وصل اللهم وسلم وبارك على أكرم الخلق محمد وعلى آله وصحبه وسلم ..